الباب الثاني
آل المهلب في الخليج والمشرق الإسلامي حتي قيام الدولة العباسية
(١٣٢هـ/٧٤٩م)

- الفصل الأول: أسرة المهالبة منذ إسلام أبي صفرة وحتي وفاة يزيد بن معاوية (٦٤هـ/٦٨٣م)

- الفصل الثاني: آل المهلب وثورة عبد الله بن الزبير.

الفصل الثالث: دور آل المهلب في القضاء علي الأزارقة.

الفصل الرابع: ولاية المهلب علي خراسان حتي وفاته (٨٢هـ/٧٠١م).

الفصل الخامس: أسرة المهالبة بقيادة يزيد حتي وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ/٧١٩م).

الفصل السادس: ثورة آل المهلب علي الدولة الأموية وموقعة العقر (١٠٢هـ/٧٢٠م).

Scanned by CamScanner

الفصل الأول

أسرة المهالبة
منذ إسلام أبي صُفرة وحتي وفاة يزيد بن معاوية
(٦٤هـ / ٦٨٣م)

Scanned by CamScanner

الفصل الأول

أسرة المهالبة

منذ إسلام أبي صُفرة وحتي وفاة يزيد بن معاوية

(٦٤هـ/٦٨٣م)

١- إسلام أبي صفرة وبداية ظهور المهلب

تنتسب أسرة المهالبة إلى المهلب بن أبي صفرة، واسم أبي صُفرة «ظالم ابن سراق»[١] الذي يرجع نسبه إلى قبائل الأزد اليمنية[٢] التي هاجرت إلى عُمان وكانت إحدى الهجرات اليمنية التى تفرقت في شبه الجزيرة العربية في أعقاب انهيارات سد مأرب ولأسباب أخرى ذكرها الرواة والنسّابون، وكانت الأزد عند تفرقها أضيف لكل طائفة منها شئ وما يميزها عن غيرها، فقيل أزد دُبا وأزد شنوءة وأزد عُمان.. ومرجع الكل إلى الأزد المذكورة[٣] ويروي النسّابون العُمانيّون أن أبا صُفرة من أهل مدينة (آدم) من داخلية عُمان، وأن آل بوسعيد في عمان ينتسبون إلى أبي سعيد المهلب بن أبي صفرة[٤].

ويروى ابن حجر في الإصابة ما يوحي بأن صفرة كان صحابياً والتقى بالرسول ﷺ وبايعه على الإسلام، وأن رسول الله هو الذي أطلق عليه هذه التسمية «أبا صفرة» فيقول: «أن أبا صفرة قدم على رسول الله ﷺ على أن يبايعه وعليه حُلّة صفراء.. فلما رآه.. قال له من أنت. قال: أنا قاطع بن سارق بن ظالم.. فقال له النبى: أنت أبو صفرة. دع عنك سارقاً

(١) راجع: ابن قتيبة، المعارف، ص ٣٩٩ (القاهرة ١٩٦٩)، أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج ٢، ص ٧٥ (القاهرة ١٩٧٢) ويروي ابن حزم أن اسمه: سالم بن سراق. انظر: جمهرة أنسلب العرب، ص ٣٦٧ (القاهرة ١٩٨٢).

(٢) الأغاني، ٢، ص ٧٦، ابن حجر، الإصابة، ج ٤، ص ١٠٨ (بيروت ١٣٢٨هـ).

(٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٥، ص ٣٥٨.

(٤) راجع: سيف بن حمود البطاش، تاريخ المهلب القائد، ص ١٣، ص ٢٢.

Scanned by CamScanner

وظالماً.. فأعلن أبو صفرة إسلامه، وقال إن لي ثمانية عشر ذكراً ورزقت بنتاً سميتها صفرة، فقال النبي وأنت أبو صفرة[1].

ويعترف ابن حجر بأن هذه الرواية فيها اختلاف وأن بعض الروايات تنكر صحابة أبي صفرة ولقاءه بالنبي. وفي رواية صاحب «الاستيعاب» أن أبا صفرة كان مسلماً على عهد الرسول ﷺ ولم يفد عليه، ووفد على عمر بن الخطاب[2].

والروايتان السابقتان تحتاجان إلى وقفة لترتيب ما جاء فيهما طبقاً لما ورد في المصادر العُمانية التي تحت أيدينا. فاحتمالات لقاء أبي صفرة بالرسول ﷺ في المدينة ليعلن إسلامه بين يديه ممكنة. إذ تروي المصادر العُمانية أن الإسلام قد عرف طريقة إلى عمان في وقت مبكر من ظهور الدعوة الإسلامية في الحجاز، وأن أول من اعتنق الإسلام في عُمان هو مازن ابن غضوبة من أهل سمائل الذي سافر إلى المدينة والتقى بالنبي وأعلن إسلامه أمامه، وتبعه البعض في هذا الاتجاه[3] ويروي ابن سعد في الطبقات أن وفوداً من أهل عُمان رحلت إلى المدينة والتقت بالنبي ﷺ لإعلان إسلامها وكان ذلك قبل الفتح وطلبوا من الرسول أن يرسل معهم من يعلمهم شئون دينهم[4] وكان هذا قبل أن يبعث الرسول برسالاته إلى حاكمي عُمان: عبد وجيفر ابني الجلندي يدعوهما فيها إلى الإسلام[5]. فإذا أضفنا إلى هذا أن

(١) ابن حجر، ج ٤، ص ١٠٨ – وهناك رواية أخرى في الأغاني بأن تسميته بأبي صفرة لأنه كان يصفر لحيته. انظر: الأغاني: ج ٢، ص ٧٦.
(٢) ابن عبد البر، الاستيعاب، ص ١٠٩ (بيروت ١٣٢٨ هـ).
(٣) نور الدين السالمي، تحفة الأعيان، ج ١، ص ٥٣ وما بعدها.
(٤) ابن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٨٠ – ٨١ (طبعة دار الشعب).
(٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٩٣.

أبا صفرة كان مقدماً في قومه أهل عُمان وكان من أصحاب السيادة والزعامة .. فلما أسلم زاد شرفه وقدمه قومه[1] فإننا نرجح حدوث رحلته إلى المدينة ولقائه بالرسول ﷺ كما جاء في رواية ابن حجر.

أما عن قول صاحب الاستيعاب بأن أبا صفرة لم يلتق بالرسول ﷺ وإنما التقى بعمر بن الخطاب، فهذه الرواية ينقصها الدقة. فإنه من المعروف أن أبا صفرة قد التقى بأبي بكر الصديق بعد توليه الخلافة الإسلامية، والروايات التي بين أيدينا تؤكد أنه في أعقاب وفاة الرسول (ﷺ) عاد عمرو ابن العاص من عُمان إلى المدينة، مصحوباً بوفد عُماني يقدر بحوالي سبعين فارساً على رأسهم أحد حاكمي عُمان وهو «عبد بن الجلندي» وكان من بين أعضاء هذا الوفد أبو صفرة[2]. وكان هذا الوفد في حقيقة أمره خفارة لعمرو بن العاص، خوفاً عليه من مخاطر الرحلة من عُمان إلى المدينة في ظل الاضطرابات التي شاعت بين القبائل في أعقاب وفاة الرسول ﷺ فكان عمرو ابن العاص في رحلته «يلقى الناس مرتدين، وقدم على الناس بالمدينة فطافوا به يسألونه، فأخبرهم أن العساكر معسكرة من دبا إلى المدينة[3] لذلك ما كاد الوفد العُماني يصل إلى المدينة حتى التقى بالخليفة أبي بكر، وتحدث أبو صفرة عن العُمانيين فقدّم إليه عمرو بن العاص سالماً معافى وقال: «هذه أمانة كانت في أيدينا وفي ذمتنا وديعة لرسول الله ﷺ فقد برئنا منها إليك، فقال أبو بكر: جزاكم الله خيراً»[4].

(١) العوتبي، الأنساب، ج ٢، ص ١٣١.
(٢) راجع: ابن خلكان، الوفيات، ج ٤، ص ٣٢٣، ٣٢٩.
(٣) السالمي، تحفة، ص ٤٥.
(٤) نفسه، ص ٤٣.

Scanned by CamScanner

ويؤكد صاحب الأغـاني هـذه الرواية العُمانية فيقـول: «وفد ابن الجلندي في الأزد، أزد عُمان .. فـكان فيمن وفـد منهم أبو صفرة .. فدخل إلى عمر مع ابن الجلندي»[1]. ويبدو أن الوفد العُماني كان قد التقى في أول الأمر مع عمر بن الخطاب ثم حدث اللقاء بعد ذلك مع الخليفة أبي بكر، لأن الروايات المتوفرة لا تذكر إلا زيارة واحدة لابن الجلندي تلك التي ذكرناها والتي شارك فيها أبو صفرة.

ثم يأتي ذكر أبي صـفرة كـأحد القـادة الذين شـاركوا في الحمـلات الإسلامية على بلاد فارس في عـهد الخليفة عمر بن الخطاب، وكان عمر قد أصدر تعليمات إلى والي عُمان في ذلك الوقت «عثمان بن أبي العاص الثقفي» بمراقبة تحركات الجيش الفارسي في الخليج، وأن يتصدى له عند الضرورة، ويبدو أن أبا صفرة كان على خبرة ودراية كبيرة بشئون البحر والملاحة البحرية وموضع ثقة أهل عُمان في هذا المجال، فعندما طلب عمر بن الخطاب من والي عُمان أن يقطع الخليج بالسفن إلى فارس طلب عثمان بن أبي العاص من أهل عُمان أن يدلوه على من يشاوره في أمر هذه الحملة البحرية، فاقترح عليه العُمانيون أن يشاور أبا صفرة[2].

وندب والي عُمان عثمان بن أبي العاص المقاتلة فاجتمع له حوالي ثلاثة آلاف مقاتل معظمهم من أزد عُمان، وكان من بين رجاله أبو صفرة وكان يقود قومه بني عمران[3] وصحب أبو صفرة من أبنائه: النجف والمغيرة

(١) الأغاني، ج ٢، ص ٧٦.
(٢) الأنساب، ص ١٢٣، تحفة، ص ٤٦.
(٣) بنو عمران من بطون الأزد نسبة إلى عمرو بن عدي بن حارثة بن عمرو بن عامر. (انظر: تاريخ اليعقوبي، ج ١، ص ٢٠٣ – ٢٠٤.).

وحبيب[1]. وتمكن عثمان بن أبي العاص بهذه الحملة من هزيمة القـوات الفارسية في الخليج واستولى على جزيرة «بر كاوان»[2] وطارد الفرس حتى الضفة الشرقية للخليج وأوقع بهم الهزيمة في كرمان، وأظهر أبو صفرة وأبناؤه ورجاله شجاعة وبسالة خلال هذه المعارك[3].

واستمر أبو صفرة يشارك في المعارك التي خاضها المسلمون في الجبهة الفارسية في عهد عثمان بن عفان، فيروي ابن خلدون أن عثمان بن أبى العاص أرسل أخاه الحكم من البحرين إلى فارس في ألفين فسارإلى توج – مدينة بفارس – وعلى مجنبتيه جارود العبدى وأبو صفرة والد المهلب، وكان كسرى أرسل أحد قواده ويدعى «شهرك» في الجنود للقائهم، فالتقوا بتوج وانتهى الأمر بهزيمة الفرس وقتل قائدهم «شهرك» وطارده المسلمون إلى سـابور[4] وحاصروها حتى خضع أهلها للصلح[5].

وبعد هذا الانتصار نزل أبو صفرة في توج واتخذها مقراً له مع أهله وجنده ولكنه انتقل بعد ذلك للإقامة في البصرة في خلافة عثمان بن عفـان

(١) الأنساب: ص ١٢٢.
(٢) بر كاوان: أو أبر كاوان، جزيرة عظيمة فى بحر فارس، بين عمان والبحرين، فتحها الحكم ابن أبى العاص (البلاذرى، فتوح البلدان، ص ٤٧٦ ؛ ٤٨٢ . ياقوت، معجم البلدان، ج ١ ، ص٣٩٩).
(٣) السالمي، تحفة ، ص ٤٦.
(٤) سابور: كورة مشهورة بأرض فارس، وبها مدينة كبيرة بينها وبين شيراز خمسة وعشرين فرسخاً، ومدينتها الدوبندجان (فتوح، ص ٤٧٧ – ٤٧٩، معجم، ج ٣، ص ١٦٧ – ١٦٨، آثار البلاد، ص ٢٠٠).
(٥) تاريخ ابن خلدون، م ٢، ص ٩٨٩ (بيروت ١٩٨٦)، قارن: تاريخ الطبرى، ج ٣، ص ١٧٦ – ١٧٧.

Scanned by CamScanner

عندما رحب به واليها في ذلك الوقت عبد الله بن عامر[1] وضم فرقة الأزد بقيادة أبي صفرة إليه في البصرة[2].

ويأتي ذكر المهلب بن أبي صفرة في ذلك الوقت لأول مرة في الحملة التي قادها عبد الرحمن بن سمرة القرشي (ابن عم عبد الله بن عامر والي البصرة، الذي ولاه الخليفة عثمان على سجستان[3]، وقد شارك في الحملة على سجستان أبو صفرة وابنه المهلب ويقال أنه كان يومئذ ابن عشرين سنة وبعد معارك عنيفة استولى المسلمون على سجستان، ثم توجه المسلمون إلى كابل[4] وكان المهلب أحد أبطال المعارك حول كابل حيث تمكن من إصابة ملك كابل مما اضطره إلى الاستسلام وعقد الصلح مع المسلمين، وإعلان إسلامه[5]. وتتفق هذه الحملة مع ما ذكره الطبري في أحداث سنة ٣٥هـ/٦٥٥م حيث أشار إلى حملة شارك فيها المهلب بن أبي صفرة، وهو أول ذكر للمهلب في تاريخ الطبري[6] ويؤكد تسلسل الأحداث ما رواه العوتبي من أن أبا صفرة غزا مع عبد الرحمن بن سمرة القرشي خراسان

(١) ابن خال الخليفة عثمان، تولى البصرة وسنه ٢٥ عاماً بعد عزل أبي موسى الأشعري (ابن أعثم، الفتوحات، م ١، ص ٣٣٦).
(٢) العتبي: الأنساب، ص ١٢٥، تحفة، ص ٤٨.
(٣) سجستان: ناحية كبيرة جنوب هراة (فتوح، ، ص ٣٦٨ – ٣٨٧).
(٤) كابل: أرض كابل اسم يشمل ناحية بين الهند وسجستان، وهي ولاية ذات مروج كبيرة، ونسبتها إلى الهند أولى، وهي عاصمة باكستان الآن (فتوح، ص ٤٨٨ – ٤٩١، معجم، ج٤٢٢، آثار، ص ٢٤٣).
(٥) انظر: قدامه بن جعفر، الخراج، ص ٣٩٤، ابن أعثم. الفتوحات، م ١، ص ٣٣٩ – ٣٤٠.
(٦) تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٤٠٣.

بالقوات التى كان قد خرج بها من عُمان، ثم عاد من غزوته هذه فى خلافة علي بن أبي طالب[1].

والتقى أبو صفرة بالخليفة على بن أبي طالب في أعقاب موقعة الجمل في البصرة، ودار بينهما حوار يُفهم منه أن أبا صفرة كان زعيماً لقبائل الأزد في العراق في ذلك الوقت، لأن عليا عندما أظهر شكواه مما قاساه من قومة، قال له أبو صفرة: «والله يا أمير المؤمنين لو كنت حاضراً ما اختلف عليك منهم سيفان، فطلب علي من أبي صفرة أن يأتيه بأحد أبنائه ليعقد له لواء أمان للذين هربوا بعد موقعة الجمل، ليرجعوا إلى بلادهم ورفض النجف ابن أبي صفرة أن تستند له هذه المهمة لأنه كان حانقاً على نتائج موقعة الجمل، فوافق المهلب على القيام بهذا الدور، فعقدت راية الأمان للمهلب، ورجع معظم الفارين إلى البصرة «وتيمن الناس بلواء المهلب»[2].

ونحن لا نعلم بالتحديد تاريخ وفاة أبي صفرة، إلا أنه توفي بالبصرة في ولاية عبد الله بن العباس لعلي بن أبي طالب، ويروى العتبي إنه توفي في مسيره إلى صفين مما يرجح أن تكون وفاته حوالي سنة ٣٧هـ/٦٥٧م.

٢- المهلب يتزعم أسرة أبي صفرة:

ليست هناك إشارة واضحة في المصادر التى بين أيدينا عن الشخص الذي تولى رئاسة أسرة أبي صفرة في أعقاب وفاته، ولكن الدلائل توحي أن أهم الشخصيات في هذه الأسرة آنذاك كانت ابنه المهلب، فرغم صغر سنه

(١) العتبي: الأنساب، ص ١٢٥.
(٢) راجع النفا صيل: الأنساب، ص ١٢٥ – ١٢٦.
(٣) الأنساب، ١٢٧، تاريخ المهلب، ٢٥.

Scanned by CamScanner

بالمقارنة باخوته[1] إلا أنه قد برز في مجال الحرب والفروسية، وعلت منزلته - كما أشرنا في الصفحات السابقة - فكان المهلب هو المرشح الأول لتولى زعامة الأسرة بعد وفاة أبيه، ويرجح هذا ما ترويه المصادر عن مساهمته في غزو بلاد السند سنة ٤٤ هـ / ٦٦٤م، وخاض خلال ذلك معركة عنيفة ضد جماعة من الفرسان الأتراك، وتمكن ببراعة من أن يقضي عليهم جميعاً[2]وكان المهلب خلال هذه ا لفترة يقود جيشاً من قبيلته طبقاً لرواية البلاذري[3] مما يشير إلى أنه قد خلف أباه أيضاً في قيادة ما كان تحت يده من جند.

وفي رواية لليعقوبي أن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى زياد بن أبيه وليه على الكوفة: إن قبلك رجلا من أصحاب رسول الله فوله خرسان وهو الحكم بن عمرو الغفاري، فولاه زياد خراسان فغزا (هراة) وفتح (الجوزجان) وكان يشاركه في المعارك المهلب بن أبي صفرة[4] الذي أظهر بأساً ومهارة في قتال العدو .. واستمر المهلب يجاهد في هذه الجبهة في المناطق الوعرة وضد أشد العناصر السكانية قوة وضراوة في القتال. فعندما غزا الحكم بن عمرو الغفاري جبال الترك سنة ٤٧ هـ / ٦٦٧ م كان المهلب أحد قواد هذه الحملة، وفي مرحلة من المعارك وقع جيش الحكم في كمين للأتراك فأخذ عليهم الترك الشعاب والطرق، وعندما تحرج موقف الحكم أسند القيادة إلى المهلب بن أبي صفرة، الذي تمكن عن طريق الحيلة والتدبير من

(١) يروي ابن خلكان أن المهلب من أصاغر ولد أبي صفرة، ويحدد مولده قبل وفاة النبي بسنتين (وفيات، ج ٥، ص ٣٥١).
(٢) النويري، نهاية الأرب، ج ٢٠ ، ص ٢٦٦.
(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٥٣١.
(٤) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢، ص ٢٢٢.

أسر أحد زعماء الترك، وساومه على حياته في مقابل أن يدلهم على مخرج من من الكمين، وتمكن عن طريقه من النجاة بجيشه وما يحمله من غنائم من الحصار الذى فرضه عليهم الترك[1].

والظاهر أن ما أظهره المهلب بن أبي صفرة من مهارة قتالية وحسن تصرف وحنكة في المواقف العصبية، جعله أحد القادة المشهورين في حروب الجبهة الشرقية، فكان الولاة على خراسان يتمسكون بأن يكون فى صحبتهم المهلب بن أبي صفرة، فعندما تحرك سعيد بن عثمان بن عفان سنة ٥٦هـ/٦٧٥م لولاية إقليم خراسان كان من بين قواده المهلب بن أبي صفرة[2] وقد شارك المهلب في العديد من المعارك العنيفة في هذه الفترة وخاصة غزو سمرقند، ويقال إن سعيد بن عثمان والمهلب قد فقئت عيناهما خلال المعارك[3].

وفي خلافة يزيد بن معاوية، ولى على خراسان وسجستان سلم بن زياد سنة ٦١هـ / ٦٨٠م الذي خرج من الشام طالباً البصرة ليحمل معه أهله وولده، وليعلم أهل البصرة بولايته بلاد خراسان، ليخرج معه من أحب الجهاد فخرج معه المهلب بن أبي صفرة وعدد من سادات البصرة وفرسانها[4] وزحفت جيوش سلم بن زياد على بخارى، وكانت عليها ملكة تدعى «خاتون»، فلما شعرت بالخطر، أعلنت رغبتها في الزواج من ملك الصغد على أن يأتي لتملك بخارى، والوقوف في وجه المسلمين، فأقبل ملك

(١) راجع: نهاية الأرب، ج ٢٠ ، ص ٢٦٧ ، قارن: تاريخ الطبرى، ج ٥، ص ٢٥١ الذى يروي هذه الحادثة في أحداث سنة ٥٠ هـ.
(٢) تاريخ الطبري ، ج ٥، ص ٣٠٥.
(٣) راجع: بلاذري ، فتوح، ص ٥٠٨.
(٤) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢، ص ٢٥٢، ابن أعثم، م ٣، ص ١٥٧ - ١٥٩.

Scanned by CamScanner

الصغد في مائة وعشرين ألف مقاتل، وأمام هذا العدد الضخم رأى سلم أن يجعل على طليعة جيشه المهلب بن أبي صفرة، وبعد معارك عنيفة تمكن المهلب من إلحاق الهزيمة بجيش الترك وقتل ملك الصغد في المعركة[1].

استمر سلم بن زياد على خراسان، حتى وفاة يزيد بن معاوية في صفر سنة ٦٤ هـ/٦٨٣م[2]، وأراد سلم أن يكتم خبر موته خوف الفتنة بين القبائل ولكن الخبر ذاع في الناس بعد فترة وكان خليفته معاوية الثاني قد مات هو الآخر، فدعا سلم الناس إلى البيعة على ا لرضا حتى تستقيم أمور الناس على الخليفة، فبايعوه، ثم نكثوا بعد شهرين[3]. فلما تأزمت الأمور أمام سلم بن زياد خرج من خراسان واستخلف عليها المهلب ابن أبي صفرة، ولكن المهلب كان مدركاً لحقيقة الصراع القبلي المحتدم في خراسان وفي الشام، فلم يشأ أن يقحم نفسه في هذا الصراع، لا سيما أن معظم القبائل وخاصة القيسية لم تكن راضية عن إسناد ولاية خراسان إلى المهلب، فيروي النويري[4] أن سلم بن زياد لقي في طريق عودته من خراسان في مدينة سرخس[5] سليمان بن مرثد (أحد بني قيس بن ثعلبه) فقال له: أضاقت عليك نزار حتى جعلت على خراسان رجلا من اليمن، يعني المهلب، فما

(١) تاريخ اليعقوبي ، ص ٢٥٢.
(٢) ابن أعثم ، م ٣، ص ١٥٩.
(٣) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٤٥.
(٤) نهاية الأرب ، ج ٢٠، ص ٥١٣.
(٥) سرخس : مدينة قديمة من نواحى خراسان ، كبيرة واسعة وهى بين نيسابور ومرو فى وسط الطريق (فتوح، ص ٥٠١، معجم، ج ٣، ص ٢٠٨، آثار، ص ٣٩٠).

كان من سلم إلا أن ولاه بعض أقاليم خراسان وهى مرو الروذ[1] والفارياب[2] والطالقان[3] والجوزجان[4]، وولى أوس بن ثعلبة هراة[5]. وفي نيسابور[6] ولقي سلم بن زياد عبد الله بن خازم السلمي وكان أحد الأشراف الذين صحبوه عند ولايته خراسان[7] فسأله من وليت خراسان؟ فلما أخبره قال: أما وجدت في مضر رجلاً تستعمله حتى فرقت خراسان بين بكر بن وائل ومزون عمان[8] وطلب منه أن يكتب له عهداً على خراسان، فكتب له[9].

(١) مرو الروذ: مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، بين ا لغور وغزتة، واسعة، وهى على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك، لأن روذ بالفارسية النهر. ومات المهلب بن ابى صفرة بمرو الروذ هذه (فتوح، ص ٥١٢، ٥١٤، معجم ٥، ص ١١٢، آثار، ص ٤٥٥).
(٢) الفارياب: مدينة مشهورة بخراسان من أعمال جوزجان قرب بلخ غربى جيجون، ومن فارياب إلى طالقان ثلاث مراحل ومن فارياب إلى بلخ ست مراحل (فتوح، ص ٥٠٣، ٥٠٤، معجم، ج ع، ص ٢٢٩، مراصد، ج ٣، ص ١٠١٤).
(٣) الطالقان: بلدة بين مرو الروذ وبلخ، وهى أكبر مدينة بطخارستان، وهى فى مستوى الأرض قريبة من جبال الديلم، ولها نهر كبير وبساتين (معجم، ج ٤، ص ٦، آثار، ص ٤٠٢، فتوح البلدان، ص ٥٠٣ – ٥٠٦).
(٤) الجوزجان: أو جوزجانان، هما واحد، وهو اسم كورة واسعة من كور بلخ بخراسان، وهى بين مرو وبلخ، ومن مدنها الأنبار وكلا روفارياب (فتوح، ص ٥٥٣، ٥٠٤، معجم البلدان، ج ٢، ص ١٨٢).
(٥) هراة : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان قرب أصطخر، كثيرة البساتين والخيرات (فتوح، ص ٤٩٩، معجم، ج ٥، ص ٣٩٦، آثار، ص ٢٨١).
(٦) نيسابور : مدينة من مدن خراسان، ذات فضائل حسنة وعمارة، بينها وبين مرو الشاهجان ثلاثون فرسخاً (فتوح، ص ٥١١، معجم، ج ٥، ص ٣٣١، آثار البلاد، ص ٤٧٣).
(٧) تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ، ص ٢٥٢.
(٨) تاريخ الطبري ، ج ٥، ص ٥٤٦.
(٩) النويري ، نهاية الأرب، ج ٢٠ ، ص ٥١٣

Scanned by CamScanner

وتوجه عبد الله بن خازم إلى مرو عاصمة خراسان، وبلغ خبره المهلب الذي رأى أن خراسان مقبلة على فترة حرجة من الصراع القبلي من أجل السيطرة وفرض السيادة عليها، وحسم المهلب أمره على ألا يكون طوفا في هذا الصراع، ولا سيما وأن الصراع كان على أشده في الشام حول منصب الخلافة، ويبدو أن ذكاء المهلب السياسي قد هداه إلى التخلي عن منصبه المؤقت كوال لخراسان فاستخلف عليها هرفجة بن الورد (من بني جشم بن سعد بن زيد بن مناة بن تميم) وانسحب من خراسان في سلام، ويؤكد حسن تصرف المهلب في هذا الموقف وانسحابه من خراسان ما رواه الطبري «لما مات يزيد بن معاوية، ومعاوية بن يزيد، وثب أهل خراسان بعمالهم، وغلب كل قوم على ناحية، ووقعت الفتنة، وغلب ابن خازم على خراسان ووقعت الحرب[1].

(١) تاريخ الطبري، ج ٥، ص ٥٤٦.

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني

آل المهلب وثورة عبد الله بن الزبير

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني

آل المهلب وثورة عبد الله بن الزبير

كان عبد الله بن الزبير من أقوى الشخصيات التي عارضت تولية يزيد بن معاوية للخلافة بعد أبيه سنة ٦٠هـ/٦٧٩م، وفي أعقاب استشهاد الحسين بن على في كربلاء (٦١ هـ / ٦٨٠ م) أصبح ابن الزبير أبرز المرشحين لقيادة المعارضة ضد الأمويين، وحظي بتأييد أهل الحجاز وتهامة، وتعرض لغضب يزيد ومحاولاته القضاء عليه، وفي أعقاب موت يزيد، بويع ابن الزبير بالخلافة سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣م وانضوى تحت لوائه أ جزاء كبيرة من العالم الإسلامى(١).

وفي هذه الظروف عاد المهلب من خراسان سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣م واستقر في مقر أسرته بالبصرة بين رجاله وأنصاره. ويتضح من الروايات التي بين أيدينا أن عبد الله بن الزبير كان يعرف قدر المهلب وأهمية أن ينضم رجل مثله إلى صفوفه، ونجح في أن يجذبه للقائه في مكة حيث تشاور الرجلان، فيروي ابن خلكان أنه أثناء خلوه عبد الله بن الزبير بالمهلب يشاوره ،دخل عليه عبد الله بن صفوان بن أمية بن خلف .. فقال: من هذا الذي شغلك يا أمير المؤمنين يومك هذا؟ قال: أو ما تعرفه؟ قال: لا، قال: هذا سيد أهل العراق، قال: فهو المهلب بن أبي صفرة(٢) وقد أسفرت هذه المشاورات عن إقناع عبد الله بن الزبير للمهلب بأن يتولى خراسان نائباً عنه(٣).

---

(١) انظر: تاريخ ابن خياط، ص ٢٣٧، تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥٥.
قارن: William moir: The caliphate decline and Fall. London, 1924, p. 317

(٢) وفيات، ج ٥، ص ٣٥١.

(٣) انظر: نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

Scanned by CamScanner

وقد آثار هذا الأمر جدلاً حول أخلاقيات آل المهلب نتيجة تحوله من ولاء إلى ولاء، فبعد أن كانوا يعملون تحت راية الدولة الأموية تحولوا إلى أعدائها من آل الزبير.

وفي اعتقادي أن العلاقة بين المهالبة وثورة عبد الله بن الزبير كانت علاقة طبيعية ومنطقية، فالمهالبة منذ ظهورهم على مسرح الأحداث كانوا يمثلون أسرة محاربة يتسم قادتها بالشجاعة والبطولة في ميدان الحرب والجهاد وكانت مناطق نشاطهم في هذه الفترة التي نحن بصددها في أقاليم العراق وما يليها شرقاً وخاصة مقر إقامتهم في البصرة على رأس الخليج، ولما كانت معظم هذه المناطق قد أصبحت – بصورة أو بأخرى – ضمن نفوذ عبد الله ابن الزبير، فإنه من الطبيعي أن يسعى ابن الزبير إلى ضم القادة البارزين في هذه المناطق إلى جانبه، ومنهم آل المهلب. ومما ساعد على ذلك غياب التأثير الأموي، وانقطاع أجزاء كبيرة من الدولة الأموية، وانشغال الأمويين بقضية الوراثة والبحث عن خليفة بعد معاوية الثاني.

وكانت خراسان في ذلك الوقت مازالت في حالة اضطراب، فأقبل المهلب إلى البصرة في طريقه إلى خراسان سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤م، وكانت شوكة الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق قد اشتدت على المدينة، مما اضطر أمير البصرة عبدالله بن الحارث إلى محاولة ضد الأزارقة عن مدينته، ودارت المعارك العنيفة بين الجانبين، ورغم مقتل زعيم الأزارقة سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م[1] إلا أن الحرب استمرت وكانت الغلبة فيها للأزاراقة الذين تمكنوا من

(١) راجع : ابن أعثم، م ٣، ص ٢٠١ ، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٢٣ – ٣٢٤.

الاقتراب من البصرة وأصبحت قريبة المنال ،فأتى أهلها الأحنف بن قيس وسألوه أن يتولى حربهم، فأشار عليهم بالمهلب بن أبي صفرة،[1] .

وفي هذه الأثناء كان المهلب قد قدم من قبل عبد الله بن الزبير حاملاً تقليده ولاية خراسان فخرج إليه أشراف أهل البصرة وكلموه في حرب الأزارقة ويفهم من رواية اليعقوبي المكانة المرموقة التي كان يتمتع بها المهلب في البصرة وبين أهلها، فمن بين ما قاله أهل البصرة للمهلب في هذا الموقف «أنت شيخ الناس وسيف العراق، وقد ترى ما فيه أهل مصرك من هذه الخوارج المارقة، والإقامة على منع بلدك والذب عن حريمك أولى من خراسان»[2]. ويبدو أن المهلب رغب في أن يكون تصديه للأزارقة بتكليف رسمي من جانب عبد الله بن الزبير، وتشير المصادر إلى كتاب وصل إلى المهلب من ابن الزبير بتأجيل ولايته على خراسان وإسناد مسئولية التصدي للأزارقة إليه، وجاء في هذا الكتاب.

«بسم الله الرحمن الرحيم، من عند أمير المؤمنين (عبد الله بن الزبير) .. فإنه عاملي بالبصرة كتب إليّ كتاباً يذكر فيه أن قوماً من خوارج الأزارقة المارقة .. قد عزموا على أن يقبلوا إلى أرض البصرة لقتل الرجال وأخذ الأموال وهتك الحريم وسبي الذرية، وقد رأيت أن تكون أنت الذي تلي قتالهم، لأنك ميمون الطلعة، مبارك على أهل مصرك، والأجر في ذلك أعظم من كل أجر، فسر رحمك الله راشداً، فإنه لن يفوتك من سلطاننا خراسان ولا غير خراسان»[3].

(١) انظر : تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٢٥٦ – ٢٥٧ .
(٢) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .
(٣) راجع : تاريخ الطبري ، ج ٥، ص ٦١٥ – ٦١٦، ابن أعثم، م ٣، ص ٢٠٢ .

Scanned by CamScanner

ولكن المهلب علق موافقته على حرب الأزارقة والتصدي لهذه المهمة الخطيرة بشروط، فقال: «والله ما أسير إليهم إلا أن يجعلوا إلي ما غلبت عليه ويعطوني من بيت المال ما أقوي به من معي، فأجابوه إلى ذلك[1] وكتبوا بذلك كتاباً وأرسلوه إلى عبد الله بن الزبير فأمضاه[2].

ويفهم مما سبق أن المهلب كان حريصاً أن تكون حركته في اتجاه الأزراقة بموافقة جميع الأطراف، وفى نفس الوقت أن يؤمن لجيشه حاجته من التمويل خلال المعارك التي كان يتوقع لها أن تستغرق وقتاً طويلاً، لذلك كان حرصه أن يكون له إيراد الأراضي التي تقع في يده ويستردها من الأزارقة.

وتمكن المهلب من حشد جيش يقدر بحوالي اثنى عشر ألفاً[3] معظمهم من قومه أزد عمان، ونظر في بيت مال البصرة فكان لا يفي بحاجة الجند، فتفاوض المهلب مع تجار البصرة، وأوضح لهم أن تجارتهم قد كسدت لانقطاع موارد الأهواز وفارس، وركود حركة التجارة لسيطرة الأزارقة على هذه المناطق، وسألهم معاونته بالمال. ووعدهم بأن يمكنهم من تجارتهم ويرد لهم حقوقهم، فاستجاب تجار البصرة «وأخذ المهلب من المال ما يصلح به عسكره»[4].

وهكذا تصدى المهلب لمهمة حرب الأزارقة ابتداء من سنة ٦٥هـ/٦٨٤م وستصبح هذه المهمة أهم مشاغله فيما تلا ذلك من سنين

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ٢٦٥، نويري، نهاية الأرب، ج ٢٠، ص ٣٢٤.
(٢) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٩٦.
(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٩٦.
(٤) المبرد، الكامل، ص ٢٢٦.

حتى في الفترات التي سوف تسند فيها هذه المهمة إلى غيره – وهي قليلة – فقد كان يتابع الأحداث، ويسدي النصح، ويبدي الرأي. وقد دارت بين آل المهلب وبين الأزارقة في هذه المرحلة معارك ضارية كانت فيها انتصارات وهزائم، وظهرت فيها بطولات وتضحيات عظيمة من كلا الطرفين، وسجلتها بالتفصيل معظم المصادر التي بين أيدينا ويهمنا من هذه المعارك ما يلقى الضوء على موضوعنا.

شارك آل المهلب منذ البداية في جيش المهلب الذي تحرك من البصرة سنة ٦٥هـ/٦٨٤م فكان على ميمنته ابناه يزيد وحبيب، وعلى ميسرته ابناه المغيرة وقبيصة، وعلى جناح ميمنته ابنه عبد الملك، وعلى جناح ميسرته ابنه المفضل وفي كمينه ابناه زياد ومروان، وبين يديه ابنه محمد وأخوه المعارك بن أبي صفرة[1].

وقبل بداية المعارك ضد الأزارقة، كان على المهلب أن يوضح أهداف الحرب ودور الرجال وأهمية تضحياتهم، فوقف بين رجاله، ووجه كلامه إلى بنيه وهو يعني جميع الجند، وقال لهم «يابني: إن أول غزوكم إنصافكم لأخوتكم من المسلمين، وأن تؤاسوهم بأنفسكم، .. فباشروا الحرب بأنفسكم، واستقبلوا حر السيوف بوجوهكم وسنان الرماح بصدوركم ونحوركم، واعلموا أنها منزلتان: إما شهادة، وإما ظفر»[2].

وكان على المهلب في بداية المعارك أن يزيح الأزارقة الذين يرابطون على الضفة الشرقية لنهر الفرات. وأن يعيد الجسر الذي يربط بين الضفتين، ليتمكن من العبور بجيشه، فأرسل ابنه المغيرة في السفن، ونزل المغيرة على

(١) ابن أعثم، م ٣، ص ٢٠٤.
(٢) نفسه.

Scanned by CamScanner

الضفة الشرقية للنهر وحارب الأزارقة فشغلهم وأزاحهم عن مواقعهم حتى تمكن المهلب من إعادة عقد الجسر وعبر بكامل جيشه مما اضطر الأزارقة إلى الانسحاب، فنهى أصحابه عن اتباعهم[1].

وكانت سياسة المهلب العسكرية في تعامله مع الأزارقة، تعتمد على التريث، ودراسة الموقف بدقة، وعدم التسرع في الاشتباك أو خوض معارك قد تؤدى إلى نتائج عكسية، فأقام المهلب في موقعه أربعين يوماً يجبي الخراج وينظم قواته، وأتت سياسته نتائجها في تقوية جيشه، وتدعيم جسور الثقة بينه وبين أهل البصرة وخاصة التجار ،فقضى المهلب التجار وأعطى أصحابه، فأسرع إليه الناس رغبة في مجاهدة الأزارقة، ولما في الغنائم والتجارات،[2] حتى بلغ عدد قواته خلال هذه المدة ما يزيد على عشرين ألفاً[3].

وتبع المهلب الأزارقة في حذر، وكانوا قد انسحبوا إلى الأهواز، ورغم ما تحت يده من جيش كثيف إلا أنه كان حذراً ،ولما نزل المهلب بالقوم خندق عليه، ووضع المسالح، وأذكى العيون، وأقام الأحراس .. وأبواب الخنادق عليها رجال موكلون بها، فكانت الأزارقة إذا أرادوا بيات المهلب، وجدوا أمراً محكماً، فرجعوا، فلم يقاتلهم إنسان قط كان أشد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منه،[4]. ولم يكن المهلب ليكتفى بهذا بل كان يدس الجواسيس إلى عسكر الأزراقة فيعرف أخبارهم وتحركاتهم[5].

(١) المبرد ، ص ٢٢٧.
(٢) نفسه .
(٣) الحميري ، الروض المعطار ، ص ٢٤٨ (بيروت، ١٩٨٣).
(٤) تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٦١٧ ، الروض ،ص ٢٤٨.
(٥) المبرد ، ص ٢٢٨.

ودات معارك عنيفة في منطقة الأهواز وما حولها بين الطرفين، برز فيها آل المهلب الذين كانوا يخوضون المعارك بين جنودهم، وقتل خلال هذه الفترة ،المعارك ابنْ أبي صفرة، بالقرب من نهر تيري[1]، ويبدو أن الأزارقة أرادا أن يحسموا الموقف لصالحهم فتجمعوا بكل حشودهم وأسلحتهم، ليخوضوا معركة فاصلة ضد المهلب، وكان تجمعهم في منطقة سلى وسلبري[2] بالأهواز[3].

ويفهم من وصف الطبري لجيش الأزارقة آنذاك أنهم كانوا يتفوقون على جيش المهلب في السلاح والعتاد ،.. وجاءوا وهم أحسن عدة، وأكرم خيولاً، وأكثر سلاحاً من أهل البصرة، .. فجاءوا وعليهم مغافر تضرب إلى صدورهم، وعليهم دروع يسحبونها وسوق من زرد يشدونها بكلاليب الحديد إلى مناطقهم،[4].

والتقى الجيشان في معركة قاسية، وكثف الأزارقة هجومهم على جيش المهلب حتى أحدثوا اضطرابا شديداً في صفوفه، وكادت الهزيمة أن

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٩٧ ، نهاية الأرب، ج ٢٠ ، ص ٣٢٥ . ونهر تبرى: اسم لنهر ويلد من نواحى الأهواز وله ذكر فى أخبار الفتوح والخوارج (فتوح، ص ٤٦٤ ، معجم، ج ٢ ، ص ٦٦، ج ٥، ص ٣١٩، مراصد، ج٣، ص ١٤٠١).
(٢) سلى وسلبرى: سلى جبل بمناذر من أعمال الأمواز، وسلبرى عند سليمانا باذ، ومجموع اللفظين موضع واحد من نواحى خوزرستان قرب عند يسابور وكانت به وقعة للخوارج مع المهلبان ابى صفرة قتل فيها عبيد الله بن الماحوز أمير الخوارج وفى ذلك يقول بعض الخوارج:

بسلى وسلبرى مصارع فتية ... كرام وقتلى لم توسد خدودها

(ياقوت، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٣٢).
(٣) المبرد ، ص ٢٣٣.
(٤) طبري ، ج ٥، ص ٦١٨، حوادث سنة ٦٥، الكامل، ج ٤، ص ١٩٩.

Scanned by CamScanner

تحيق بجيش المهلب «وضرب المهلب على رأسه ضربة منكرة فسقط عن فرسه إلى الأرض وأحدقت به بنوه فجعلوا يحامون عنه أشد المحاماة..»[1] واستغل الأزارقة الموقف لبث الرعب في جيش المهلب، فنادى مناديهم: «ألا إن المهلب قد قتل»[2] فكان لهذا النداء تأثيره على معنويات الجند لولا أن تدارك المهلب الموقف وصعد إلى تل قريب من ميدان المعركة «وأخذ ينادي في شباب الأزد وفتيان اليحمد[3]: وأعيرونا جماجمكم ساعة من نهار»[4] فثاب إليه جماعة من قومه أهل عُمان»[5] فأجتمع إليه منهم نحو ثلاثة آلاف سماهم الطبرى «سرية عُمان»[6].

وقف المهلب في هذه السرية بين قومه وقد شعر بالأمان والرضى، وألقى فيهم كلمة تعبر عن ثقته الكاملة في هذا العدد الصغير من رجاله الصامدين. فهم خير من الذين أعطوا ظهورهم للأزارقة عندما احتدم القتال، وفروا في اتجاه البصرة، وقال المهلب «فإن الله ربما يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم فيهزمون، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون، ولعمري ما بكم الآن من قلة، إني لجماعتكم لراض، وإنكم لأنتم أهل الصبر، وفرسان أهل المصر، وما أحب أن أحداً ممن انهزم معكم، فإنهم إن كانوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً»[7].

(١) ابن أعثم، م ٣ ، ص ٣٠٦.
(٢) المبرد ، ص ٢٣٥.
(٣) اليحمد من الأزد والخليل من بطن منهم يقال له الفراهيد (المبرد، ص ٢٣٦).
(٤) طبري : ج ٥ ، ص ٦٢١ – ويكمل الطبري الرواية فيقول: فأخذ فتيان منهم يكرون فيقاتلون ثم يرجعون إليه ويقولون: يا أبا علقمة، القدور تستحار!.
)٥) الروض ، ص ٢٤٨ ، المبرد ، ص ٢٣٤.
(٦) طبري ، ج ٥، ص ٦١٨.
(٧) نفسه.

وأراد المهلب أن يغوض قلة جيشه بالنسبة لجيش الأزارقة، فأمر أصحابه بالاستعداد للهجوم استغلالاً لفرصة مطاردة بعض فرسان الأزارقة للمنهزمين من رجاله في اتجاه البصرة، وأمرهم أن يجهز كل رجل عشرة أحجار وأن يعد مخالي لهذه الحجارة، لمفاجأة الأزارقة بضربات الحجارة «.. فى وقت الغفلة، فإنها تصد الفارس وتصرع الراجل»[1]. وزحف المهلب برجاله إلى الأزارقة، فما شعروا إلا والمهلب يهاجمهم والحجارة تستعرض وجوههم من كل جانب ورجاله تحيط بهم وتعمل فيهم القتل ولم يمض إلا وقت قصير حتى قتل زعيمهم «عبيد الله بن الماحوز» وقتلت أعداد كثيرة من الأزارقة واستولى المهلب على معسكرهم وما فيه[2] وقد حقق آل المهلب وقومهم من أهل عُمان النصر الحاسم في هذه المعركة على الأزارقة، وكان المغيرة بن المهلب أحد الأبطال المشهود لهم خلالها، فوصفه ابن أعثم بأنه كان «أشد ما تكون الحرب، أشد ما يكون تبسما»[3].

وكانت أخبار هزيمة المهلب في بداية المعركة قد وصلت إلى البصرة، وتناقل الناس خبر قتل المهلب، ونعي بالبصرة، فنسي الناس رجالهم وأقام أهل كل دار يبكون المهلب لا يسألون عن أحد غيره، واجتمع بعضهم في مسجد البصرة يبكون[4] وهم معظم الناس بالنقلة إلى البادية خوف السلب والنهب من جانب الأزارقة الذين توقعوا اقتحامهم للمدينة بين لحظة وأخرى، لذلك ما كاد المهلب يوقع بالأزارقة حتى بعث الرسل إلى البصرة ليبشر أهلها بالنصر ويعلمهم بسلامته، وكتب كتاباً بذلك إلى والي البصرة،

(١) المبرد ، ص ٢٣٥.
(٢) الروض ، ص ٢٤٨.
(٣) ابن أعثم ، م ٣ ، ص ٣٠٦ ، المبرد ، ص ٢٣٥ – ٢٣٧.
(٤) ابن أعثم ، نفسه ، ص ٣٠٨.

Scanned by CamScanner

فأقام الناس، وتراجع من كان قد هرب منهم خوف الأزارقة[1] وفي نفس الوقت فقد وضع المهلب كمائن من رجاله وفرسانه في طريق عودة الأزارقة الذين كانوا يطاردون فلول الجيش المنهزم في اتجاه البصرة فأوقعوا بهم وقضوا على معظمهم إلا من فر منهم وكان ذلك سنة ٦٦هـ / ٦٨٥م[2].

انصرفت فلول الأزارقة بعد هزيمتهم في سلى وسلبري ليعيدوا تنظيم صفوفهم من جديد، وواضح أن الأزارقة بعد الضربة العنيفة التي وجهها لهم المهلب في هذه المعركة، قد أدركوا أنهم يحاربون المهلب في شخصه، وأنه أخذر أعدائهم، وأن حسن قيادته وذكائه العسكري ومقدرته الكبيرة على إدارة المعارك وتحويل الهزيمة إلى نصر، هى من أهم أسباب نكبتهم في معركتهم الأخيرة، لذلك عمد الأزراقة إلى التخلص من المهلب، ونصبوا كميناً لاغتياله، وندبوا لهذه المهمة مائة فارس من خير وأقوى فرسانهم، ولكن المهلب كشف أمر الكمين، وأفشل ما دبره الأزارقة لقتله[3]، وانسحب الأزارقة إلى كرمان[4] وأصبهان[5]، وسيطر المهلب على إقليم الأهواز، وأقام بقية سنة ٦٦هـ / ٦٨٥م يجبي الخراج ووزع الأرزاق على جنده. وجذب الرخاء والعطاء السخي أعداداً كثيرة من أهل البصرة،

(١) الروض، ص ٢٤٨، المبرد، ص ٢٤٠.
(٢) الكامل، ج ٤، ص ١٩٦ – ٢٠٠.
(٣) راجع التفاصيل: المبرد، ص ٢٣٩.
(٤) كرمان: ناحية مشهورة، شرقها مكران وغربها وشمالها خرسان وجنوبها بحر فارس (آثار البلاد، ص ٢٤٧).
(٥) أصبهان: أو أصفهان، مدينة عظيمة من أعلى المدن ومشاهيرها، جامعة لأمتات الأوصاف الحميدة من طيب التربة وصحة الهواء وعذوبة الماء وصفاء الجو وصحة الأبدان (المصدر السابق، ص ٢٩٦).

فأثبتهم المهلب في الديوان ورزقهم حتى بلغت جيوشه ثلاثين ألفاً[1] وظل المهلب في موضعه بالأهواز مقيماً على حرب الأزارقة حتى عُزل الحارث بن عبد الله عن ولاية البصرة ووليها مصعب بن الزبير من قبل أخيه سنة ٦٧هـ/٦٨٦م[2].

وعندما أقبل مصعب بعث إلى المهلب وهو على حرب الأزارقة رسالة يفهم منها التقدير الذي كان يحظى به آل المهلب بسبب جهودهم في صد خطر الأزارقة، وجاء فيها «.. فإن الناس لو أعطوا كل إنسان قدره لقُدّمت في العرب قاطبة غير مدافَع .. فإن طاعتك وحسن بلائك بلغ بك عندنا كل الذي تحب، وما نرجو لك به من ثواب الله أجزل وأفضل ، وأنت عندنا الأمين، ولك بذلك عندنا الكرامة والفضيلة»[3].

أراد مصعب بن الزبير مواجهة خطر حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي في العراق على نفوذ الزبيريين، لا سيما وأن المختار بعد انتصاره على جيوش الأمويين وانتقامه من المشاركين في مذبحة كربلاء، كانت قد خضعت له الكوفة وسوادها إلى حلوان[4] والري[5]، وكانت الجزيرة بأجمعها في قبضة

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٦٤ – ٢٦٥.
(٢) الدينوري، ج ٢١، ص ٤٤.
(٣) ابن أعثم، م ٣، ص ٢٢٠.
(٤) حلوان: حلوان الطرف، آخر حدود السواد، مما يلي الجبال، مدينة كبيرة (فتوح، ص ٣٢٤، ٤٥٨).
(٥) الري: بينها وبين أصبهان خمسة وثمانون فرسخاً (ابن خرداذبة: المسالك والممالك، طبعة ليدن د / ت، نشر مكتبة الثقافة، ص ٥٧ – ٥٩).

Scanned by CamScanner

إبراهيم بن الأشتر[1]، وكان الأمويون يسيطرون على الشام ومصر أما عبد الله ابن الزبير فكان مسيطراً على الحجاز واليمن، ومصعب والياً على البصرة والمهلب بن أبي صفرة من قبل مصعب قائماً على حرب الخوارج. وأدرك مصعب أهمية أن يتخلص من المختار حتى يصفو له العراق وكان يرغب في أن يحشد لهذا الأمر أعظم قواده، ومع علمه بخطورة الأزارقة على العراق إلا أنه كان حريصاً على وجود المهلب إلى جانبه في صراعة مع المختار، فكتب مصعب كتاباً إلى المهلب يخبره بعزمه على المسير إلى الكوفة لحرب المختار، ورغبته في أن يكون معه، وطلب منه أن يولي بعض أولاده حرب الأزارقة ويقبل إليه بالبصرة[2] وأراد مصعب أن يتأكد من موافقة المهلب على الحضور إليه، فأرسل كتابه مع أحد قادته الموثوق بهم، وهو محمد بن الأشعث بن قيس الكندي[3] ليقنعه بأهمية وجوده بالبصرة في هذه الفترة الحرجة، والتقى ابن الأشعث بالمهلب بسابور، وتردد المهلب وكان

(١) كان إبراهيم بن الأشتر في أول الأمر يعمل لحساب المختار بن عبيد الثقفي، وتمكن من هزيمة الأمويين في موقعة الخازر (نسبة إلى نهر الخازر القريب من الموصل) نتيجة انحياز العناصر المضرية في جيش عبيد الله بن زياد قائد الأمويين في المعركة إلى جانب إبراهيم بن الأشتر، وتمكن إبراهيم من فرض سيطرته على إقليم الموصل والجزيرة (انظر: اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥٩، تاريخ الطبري، ج ٦، ص ٩١، قارن:
Simon Ockley: History of the saracent, London, 1847, p. 59.
ولكن ابن الأشتر طمع في السيطرة على ما تحت يده من أملاك واستقل عن المختار مما شجع مصعب بن الزبير في التفكير في القضاء على المختار. (انظر: اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٥٩، ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٣٨١).
(٢) النويري، ج ٢١، ص ٤٥.
(٣) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٨، ص ٣٠٨ (القاهرة، ١٩٣٣).

كارها أن يترك موقعه في مواجهة الأزارقة مدركاً لخطورتهم[1]، ولكن ابن الأشعث شرح له خطورة الموقف في العراق، فاستجاب المهلب.

قدم المهلب إلى البصرة «في تحمل عظيم ومال ورجال وعدد وعدد وجيش كثيف، ففرح به أهل البصرة»[2]، ورحب مصعب بقدوم المهلب إلى البصرة، وتأهب لقتال المختار وجعل على كل قبيلة من قبائل العرب رئيساً منها، فكان المهلب بن أبي صفرة على قبائل الأزد[3] وتولى قيادة ميسرة الجيش[4] وأبلى المهلب ورجاله بلاء حسنا في حربهم ضد المختار[5] وتمكنت قوات مصعب بن الزبير بعد معارك عنيفة من التخلص من المختار الذي قتل أثناء القتال وسيطر مصعب على ما تحت يده من أملاك[6]. ودخل الكوفة سنة ٦٧هـ / ٦٨٦ م[7].

وبعد أن تخلص مصعب بن الزبير من خطر المختار، كتب إلى إبراهيم ابن الأشتر بالجزيرة يدعوه إلى طاعته، فأقبل إليه بالطاعة، فولى مصعب المهلب بن أبي صفرة الأقاليم التي كان يسيطر عليها ابن الأشتر وهي الموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان وعزله عن حرب الأزارقة[8] وكان هدف مصعب من ذلك حسب رواية ابن خلدون «ليكون بينه وبين عبد الملك»[9].

(١) طبري، ج ٦، ص ٩٤.
(٢) ابن كثير، نفسه.
(٣) ابن أعثم، م ٣، ص ٣١٨.
(٤) ابن خلدون، م ٣، ص ٦٨.
(٥) راجع التفاصيل: النويري، ج ٢١، ص ٤٦ – ٤٨.
(٦) ابن أعثم، م ٣، ص ٣٢٦.
(٧) المسعودي، التنبيه، ص ٢٧٠.
(٨) طبري، ٦، ص ١١٢، الكامل، ج ٤، ص ٢٧٥.
(٩) تاريخ ابن خلدون، م ٣، ص ٧٢.

Scanned by CamScanner

ومن المرجح عندنا أن عـزل مـصعب للمـهلب عن حـرب الأزارقـة آنذاك، وتوليته إبراهيم ابن الأشتر لم يكن الهدف الحقيقي منه حماية العراق من الخطر المتوقع من عبد الملك بن مروان كما ذكر ابن خلدون، ولعل ما رواه ابن خلدون هو ما أعلنه مصعب لتبرير هذا التصرف، لأن إبراهيم بن الأشتر – بما عرف عنه من حقد على الأمويين – كان يمكنه أن يظل على ما تحت يده من أقاليم، وأن يتولى الوقوف بين العراق والشام، والسبب الحقيقي وراء عزل المهلب عن حرب الأزارقة كما تشير المصادر هو أن آل المهلب كانوا موضع حسد من جانب عناصر كثيرة من أهـل العـراق، ومن القيسية على وجـه التحديد لما حـازوه من ثروات طائلة، ومـا اتصفوا به من كرم وسخـاء كـان مـضرب الأمـثال، وقـد أتـاح لهم ذلك، الشـرط الذي أخـذه المهلب على الزبيريين قبيل بداية حرب الأزارقة سنة ٦٥هـ/٦٨٤م بأن يجبي أموال الأقاليم التي يسيطر عليها، والتي يستردها من قبضة الأزارقة – كما سبق أن ذكرنا – بالإضافة إلى ما اتصف به المهالبة من بطولات خلال المعارك جعلتهم موضع تقدير واحترام الخاصة والعامة، والدليل على ذلك أن عناصر من الحاقدين على المهلب دست عليه عند مصعب، وقال قائلهم «إن المهلب رجل يحب مطاولة العدو لما يجبي من البلاد، ولو عزلته ووليت غيره حرب الأزارقة لكان في ذلك هلاك العدو وتوفير المال على أمير المؤمنين»[1] فاستجاب مصعب لهذا الرأي وأحدث تغييراً في القيادات فوجه عمر بن عبيد الله بن معمر التميمي على فارس، وأسند إليه مهمة حرب الأزارقة وأمر المهلب بالتوجه إلى الموصل والجزيرة وأرمينية[2].

(١) ابن أعثم ، م ٣ ، ص ٢٢٠.
(٢) طبري ، ج ٦ ، ص ١١٩، النويري ، ج ٢٠ ، ص ٥٢٥.

وتشير الأحداث أن عمر بن عبيد الله كان مقتنعاً بما قيل عن المهلب من إطالة أمد الحرب ليجبي الأموال، وكان يظن أنه يمكنه أن يحسم المعارك معهم، فلما سار إلى خراسان كتب أبياتاً جاء فيها:

قل للأزارق الذين تجمعوا * بسابور إني لست مثل المهلب
يقاتلكم حتى إذا ما رآكم أقام فلم يبعد ولم يتقرب
وكان امرؤ يجبي الخراج بكيده يخرب أخلاق البلاد لمجلب
فأطمعكم فيه تقارب خطوه إليهم وهذا منه شبه التلعب[1]

العجيب في الأمر أن الذي رد على عمر بن عبيد الله بن معمر ودحض ادعاءه على المهلب في هذه الأبيات هو عبيدة بن هلال اليشكري أحد زعماء الأزارقة فقال:

تأن ولا تعجل علينا ابن معمر * فلست وإن أكثرت مثل المهلب
ولا لك في الحرب المحلب حظة ولا لك من يفيد بالأم والأب[2]

وهكذا يتضح إدراك الأزارقة لقوة شكيمة المهلب في الوقت الذي يطعن فيه ابن معمر في مقدرته العسكرية. وقد جنى ابن معمر نتائج سوء تقديره لقوة الأزارقة والمهالبة .. فلما تحرك بجيشه في اتجاه سابور، كانت الأزارقة تراقب حركته وأفسحوا له الطريق حتى اقترب منهم، وأمسكوا عنه ومكنوه، حتى إذا كان الليل إذ الأزارقة قد داهمته من أربع جهات، على كل جهة منها رئيس من رؤسائهم: عبيدة بن هلال اليشكري، وعمرو

(١) ابن أعثم ، م ٣، ص ٢٢١.
(٢) ابن أعثم ، م ٣ ، ص ٢٢٢ – هكذا وردت الأبيات في المصدر.

Scanned by CamScanner

القنا العنبري، وعطية بن الأسود الحنفي وقطري بن الفجاءة المازني، واحتدم القتال بين الجانبين، وحمل قطري على ابن معمر وضربه بعمود على بيضته فهشمها على رأسه فولى هارباً حتى اختلط بأصحابه، ورفعت الأزارقة المشاعل على رؤوس الجبال وأطراف الرماح فتحول الليل إلى نهار واشتد القتال .. وفي هذا الموقف الصعب أدرك ابن معمر سوء تقديره وتسرعه، فالتفت إلى رجل من عبد القيس كان قد شارك في حروب المهلب ضد الأزارقة، وسأله كيف كان المهلب يصنع في مثل هذا الموقف، فرد عليه الرجل: «أيها الأمير! إنه قد ذهب الرأي وبقي الصبر»[1] وانهزم أصحاب ابن معمر هزيمة قاسية، وأخذتهم سيوف الأزارقة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وزحفوا على معسكرهم فاستباحوه وأخذوا كل ما فيه ثم رجعوا إلى مقرهم في سابور بالغنائم.

ومما يوضح مدى تأثير التعصب القبلي بين القيسية واليمنية على مجريات الأحداث آنذاك أن عمر بن عبيد الله بن معمر أراد أن ينحي بالأئمة على جنده من أهل البصرة ويحملهم مسئولية ما لحق به من هزيمة، واتهمهم بعدم الإخلاص في قتال الأزارقة وهم تحت قيادته مثل إخلاصهم للمهلب، واتهمهم بالتعصب وقال لهم: «إنكم تقولون هذا رجل قرشي حجازي، خيره لغيرنا وشره لنا»[2]، فرد عليه أحد فرسان الأزد قائلاً: «أيها الأمير، إن المهلب كان يقاتل بنا قتال الصعلوك، ويسوسنا سياسة الملوك، حتى سكنا إليه في الليل وأنسنا إليه في النهار»[3].

(١) راجع التفاصيل : ابن أعثم ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣.
(٢) المبرد ، ص ٢٤٣.
(٣) ابن أعثم ، م ٣ ، ص ٢٢٤.

واستمرت المعارك بعد ذلك بين الأزارقة وبين ابن معمر واشتبك الجانبان في معارك غير حاسمة أسهب المؤرخون في ذكر تفاصيلها[1]، وكان أهم إنجاز للأزارقة في ذلك الوقت أن تمكنوا من اختراق صفوف جيش ابن معمر إلى الأهواز[2] مما أغضب مصعب بن الزبير عليه، واضطر إلى الخروج بنفسه لحماية البصرة من الوقوع في يدهم، فاتجهوا إلى الكوفة ولكن نائب مصعب عليها تمكن من ردهم فعادوا إلى الري واستولوا عليها بعد قتل واليها يزيد بن الحارث، وأثناء ذلك قتل زعيم الأزارقة الزبير بن الماحوز فولوا عليهم قطري بن الفجاءة الذي انسحب إلى كرمان وجبي الأموال وأعاد تنظيم صفوفه ثم اتجه إلى الأهواز وحقق سلسلة من الانتصارات حتى أصبح يهدد البصرة، وكان عامل البصرة لمصعب بن الزبير سنة ٦٨هـ / ٦٨٧م هو الحارث بن أبي ربيعة فكتب له بخطر الأزارقة على مدينته ونصحه بأنه ليس لهم إلا المهلب[3].

وأدرك مصعب بن الزبير الخطأ الذي وقع فيه عندما أرسل المهلب إلى الموصل عزله عن حرب الأزارقة، فاستدعى مصعب المهلب من الموصل، وأعاد إليه مهمة حرب الخوارج والمسير إليهم وأعاد الوضع على ما كان عليه قبل ذلك بأن بعث إبراهيم بن الأشتر إلى عمله. وجاء المهلب حتى قدم البصرة، وانتخب الناس، وسار بمن أحب ثم توجه نحو الأزارقة والتقى بهم في معارك عنيفة في منطقة «سولاف» فاقتتلوا بها ثمانية أشهر أشد قتال رآه الناس»[4].

(١) راجع تفاصيل المعارك : الطبري ، ج ٦ ، ص ١٢٥ – ١٢٧.
(٢) الأهواز : ناحية بين البصرة وفارس ، ويقال لها خوزستان أيضاً (آثار البلاد، ص ١٥٢).
(٣) طبري : نفسه، ص ١٢٧.
(٤) طبري ، ج ٦ ، ص ١٢٧ ، نويري ، ج ٢٠ ، ص ٥٢٧.

Scanned by CamScanner

استمر المهلب في صراعه ضد الأزراقة حتى سنة ٧١هـ/٦٩٠م وفيها تحرك الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلى العراق لضمها إلى حظيرة الدولة، وكان مصعب مقيماً وقتها بالبصرة وتشير الروايات التاريخية أنه فكر في الاستعانة بالمهلب بن أبي صفرة ليقف بجانبه في هذا الوقت العصيب، ويقال أنه استدعاه ليستشيره ويستعين به في تقدير الحالة، وكان رأي المهلب أن يبقى مع مصعب حتى يمكنهما صد خطر عبد الملك، ولا سيما أن أهل العراق قد مالوا إلى جانبه وكاتبوه[١]. ولكن أهل البصرة كان لهم رأي آخر، فقد اشترطوا على مصعب أنهم لن يسيرو معه لحرب عبد الملك بن مروان إلا إذا اطمأنوا على مصرهم من خطر الأزارقة، وأن يظل المهلب على حربهم فقد كانت لهم تجارب سابقة في هذا الشأن وأثبت المهلب أنه القائد الوحيد الذي استطاع التصدي للأزارقة ومنع خطرهم عن البصرة، وقال مصعب للمهلب «وأنا أكره إذا سار عبد الملك إلي ألا أسير إليه، فاكفني هذا الثغر»[٢].

ورغم أن مصعب بن الزبير قد حاول أن يحشد جيشاً قوياً لمواجهة عبد الملك واستدعى إبراهيم بن الأشتر من الموصل وجعله على مقدمته في حربه مع عبد الملك[٣] إلا أن عبد الملك تمكن من إيقاع الفرقة بين أصحاب مصعب وانتهى الأمر بقتله[٤] ولما سمع أهل البصرة الذين كانوا يقاتلون الأزارقة دفعاً عن مصرهم خبر قتل مصعب بايعوا عبد الملك بن مروان، وبايع

(١) اليوري، ج ٢١، ص ٥٠.
(٢) اليوري، ج ٢١، ص ٥٠، قارن: الأغاني، ج ١٧، ص ١٢٣.
(٣) ابن خلدون، م ٣، ص ٧٢.
(٤) راجع التفاصيل، طبري، ج ٦، ص ١٥٨ – ١٥٩.

قائدهم المهلب بن أبي صفرة[١] فكافأة عبد الملك بأن أقره على ما تحت يده وأسند إليه مهمة حرب الأزارقة وشكره وأثنى عليه ثناء كثيراً[٢].

وهكذا انتقل ولاء المهلب بن أبي صفرة من الزبيريين إلى الأمويين في أعقاب مقتل مصعب ابن الزبير، وسيطرة عبد الملك على العراق سنة ٧١هـ/٦٩٠م ومازال عبد الله بن الزبير يصارع الأمويين من مقره في مكة، ويبدو أن المهلب قد أدرك اتجاه رياح التغيير وأن الظفر في النهاية سيكون للدولة الأموية، وقد حدث ما توقعه حيث قضى الأمويون على ثورة عبد الله بن الزبير بقتله في مكة سنة ٧٣ هـ / ٦٩٢م[٣].

(١) نويري، ج ٢١، ص ١٢٧، ابن خلدون، م ٣، ص ٨٠.
(٢) ابن كثير، البداية، ج ٨، ص ٣٤٨.
(٣) راجع: طبري، ج ٦، ص ١٨٧ وما بعدها.

Scanned by CamScanner

دور آل المهلب في القضاء علي الأزارقة

Scanned by CamScanner

الفصل الثالث

دور آل المهلب في القضاء علي الأزارقة

ذكرنا أن المهلب بعد مبايعته لعبد الملك بن مروان سنة ٧١هـ/٦٩٠م، أقره الأخير على إقليم الأهواز وشكره على موقفه وأثنى عليه. وفي سنة ٧٢هـ/٦٩١م استعمل عبد الملك على ولاية البصرة خالد بن عبد الله بن أسيد، الذي بادر إلى عزل المهلب عن حرب الأزارقة وأسند إليه خراج الأهواز، ولم يستمع إلى نصيحة وجوه أهل البصرة بأن يترك أمر حرب الأزارقة للمهلب لدرايته وخبرته بهم، ولكن خالداً كان يحقد على المهلب لما وصل إليه من شهرة، وما يتمتع به من تقدير الخليفة ولأنه زعيم الأزد اليمنية، وقال لمن حوله من بني عمومته من مضر: «يا معشر قريش .. والله لقد ذهب المهلب بحظ هذا المصر، وأمير المؤمنين يظن أن أحداً لا يقوم مقام المهلب»[١] وبعث خالد أخاه عبد العزيز بن عبد الله مكان المهلب على حرب الأزارقة[٢] على أمل أن يعزز بعض ما ناله آل المهلب من علو المكانة وتقدير الخليفة الأموي. ولكن النتائج كانت مخيبة للآمال إذ خرج عبد العزيز في اتجاه فارس وجعل يطوي البلاد حتى وصل مدينة يقال لها جور[٣] من أرض فارس، فأرسل له قطري بن الفجاءة زعيم الأزارقة أحد رجاله ويدعى «صالح بن مخراق» في عدد من الفرسان، وكمن صلح لجيش عبد العزيز وهو يسير ليلاً في غفلة وعلى غير تعبئة، وانقض عليه من كل مكان فانهزم عبد العزيز بالناس، وأسرت زوجته ابنة المنذر ابن الجارود ووضع صالح السيف في أصحابه فقتل منهم أعداداً كبيرة[٤]

---

(١) ابن أعثم، م ٣، ص ٤٠٦.

(٢) طبري، ج ٦، ص ١٦٩، نويري، ج ٢١، ص ١٤٧.

(٣) مدينة بفارس، بينها وبين شيراز عشرون فرسخاً، راجع معجم البلدان لياقوت، ج ٣، ص ١٦٤.

(٤) طبري، ج ٦، ص ١٦٩.

Scanned by CamScanner

وفر عبد العزيز من ميدان المعركة حاملاً الخزي والعار لأسر زوجته. وقدعبر عن هذا الموقف أحد الشعراء في قصيدة جاء فيها:

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم * وتركتهم صرعى بكل سبيل
وتركت جيشك لا أمير عليهم فارجع بعار في الحياة طويل
ونسيت عرسك إذ تقاد سبيّة تبكي العيون برنة وعويل(٢)

ولما وصل خبر هزيمة عبد العزيز بن عبد الله إلى عبد الملك بن مروان غضب لهذا التصرف من جانب والي البصرة بعزله المهلب عن حرب الأزارقة، ووجه إليه كتاباً عنيفاً يؤكد مكانة المهلب العالية، وتقدير الخلافة الأموية لجوده وحسن بلائه، وجاء في كتاب عبد الملك «.. قبّح الله رأيك حين تبعث أخاك أعرابياً من أهل مكة على القتال، وتدع المهلب يجبي الخراج، وهو الميمون النقيبة، الحسن السياسة، البصير بالحرب، المقاسي لها، ابنها وابن أبنائها، انظر أن تنهض بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز، وقد بعثت إلى بشر بالكوفة(٢) أن يمدك بجيش، فسر معهم ولا تعمل في عدوك برأي حتى يحضره لمهلب والسلام»(٣).

ويعلق الطبري على رسالة عبد الملك إلى خالد بن عبد الله والي البصرة، بأن أكثر ما شق على نفس والى البصرة هو إخضاع رأيه في قتال الأزارقة لرأي وتوجيهات المهلب ابن أبي صفرة»(٤).

(١) نويري، ج ٢١، ص ١٤٨، ابن أعثم، م ٣، ص ٤١١، البطاش، ص ٤٧.
(٢) هو بشر بن مروان، أخو الخليفة عبد الملك بن مروان وكان والياً على الكوفة من قبل أخيه عبد الملك (راجع: طبري، ج ٦، ص ١٦٩).
(٣) نويري، ج ٢١، ص ١٤٩.
(٤) طبري، ج ٦، ص ١٧١.

وتجمعت جيوش الكوفة بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، والبصرة بقيادة خالد بن عبد الله، والتقى الجميع بالمهلب في الأهواز وكانت القيادة لوالى البصرة الذى جعل المهلب على ميمنته وداود بن قحذم على ميسرته وزحفوا للقاء الأزارقة ورغم نصيحة عبد الملك لوالي البصرة بأن يستشير المهلب ويأخذ برأيه، إلا أن العصبية القبلية كانت عاملاً مؤثراً ومسيطراً على مشاعر القادة في ذلك الوقت، فعندما أشار المهلب على خالد ابن عبد الله بأن يتحرز على السفن الكثيرة التي كانت بساحل الأهواز ويحتاط حتى لا يحرقها الأزارقة، لم يصغ إليه، ولم يمض وقت طويل إلا وكان الأزارقة قد أشعلوا فيها النار(١)، ورغم هذا فإن الأزراقة لم تدخل في قتال حاسم ضد جيش خالد، ويبدو أن كثرة عدد ذلك الجيش ووجود المهلب بين صفوفه قد جعلهم يتريثون في الصدام معه فانسحبوا إلى عمق فارس، فأرسل خالد صاحب ميسرته في أثرهم وعاد هو إلى البصرة وأقام المهلب في الأهواز(٢).

ويفهم من النصوص التاريخية أن عبد الملك بن مروان كان يدرك أن حسم المعارك في المشرق ضد الأزارقة ليس له إلا المهلب، وكان يثق في مقدرته العسكرية وخبرته الطويلة في حرب الأزراقة، فرغب عبد الملك في تقوية جيشه ومساندته لإنجاز هذه المهمة، وفي سنة ٧٤هـ/٦٩٣م أمر عبد الملك أخاه بشرا – وكان قد أضاف إليه ولاية البصرة مع الكوفة – أن يكلف المهلب بمحاربة الأزراقة، وأن يترك له حرية اختيار من يشاء من أهل البصرة، وأن يتركه في الحرب ورأيه، وحذره من أن يقع فيما وقع فيه خالد

(١) طبري، ج ٦، ص ١٧٢.
(٢) نويري، ج ٢١، ص ١٤٩.

Scanned by CamScanner

ابن عبد الله من قبل، وهـدده بالعـزل إن فعل ذلك[1] فاستعدى بشر المهلب، وقرأ عليه كتاب عبد الملك بن مـروان بتكليفه بحرب الأزارقة وأعطاه حرية أن يختار من يشاء من الرجال، فأسند المهلب مهمة اختيار الجند إلى أحد أقاربه وهو جديع بن سعيد الأزدي – خال ابنه يزيـد – ، وأمره أن يأتي الديوان فيختار الناس[2].

خـرج المهلب من البـصـرة في عـشـرة آلاف رجل من قـبـيلتـه الأزد، وثمانية آلاف من أخلاط القبائل، ودخل المهلب بجيوشه الأهواز بعد أن رحل عنها الأزارقة إلى أرض سابور بفـارس لينظموا صفوفهم استعداداً لجـولة جديدة من المعارك مع المهلب الذي أقام في الأهواز عدة أيام ثم رحل حتى نزل بمدينة رامهرمز[3] في جموعه[4].

شعر بشـر بن مـروان بالغضب الشـديد على المهلب وملأت نفسـه الحقـد لما حباه بن الخليفة من علـو المنزلة، وشق عليه أن إمـرة المهلب على الحرب جاءت من قبل الخليفة عبد الملك[5] مما جعله مقيداً بأوامره لا يستطيع أن يبعث غيره لحرب الأزارقة فيتعرض لعقاب الخليفة مما أوغر صدره على المهلب، وفكر في الكيد له بإرسال أحـد رجاله من الكوفة يشاركه القيادة ويستبد بالأمر، ولا يستمع لمشرورته، فاختار لهذه المهمة عبد الرحمن بن

(١) ابن أعثم ، م ٣ ، ص ٤١٨.
(٢) طبري ، ج ٦ ، ص ١٩٦.
(٣) رامهرمز : معنى رام بالفارسية المراد والمقصود، وهرمز أ حد الأكاسرة فهذه الكلمة مركبة معناه مراد أو مقصود هرمز وهى مدينة مشهورة بنواحى خوزرستان (فتوح، ص ٤٦٤ – ٤٦٧، معجم البلدان، ج ٣، ص ١٧).
(٤) ابن أعثم ، م ٣ ، ص ٤٢٢.
(٥) ابن خلدون ، م ٣ ، ص ٩١.

مخنف وكما يروى ابن الأثير، انفرد بشر بعبد الرحمن وحرضه على المهلب، وقال له: «خالفـه في أمـره، وأفسد عليه رأيه، ولا تقبلن له مشورة ولا رأياً، وتنقصـه وقصّر به»[1]. والظاهـر أن بشـراً قد أسـاء الاختـيـار، ولم يقـع على الرجل المناسب لهذه المهمة، فإذا كان ما يحرك بشر ضد المهلب هو العصبية القبلية، فإن عبد الرحمن بن مخنف من الأزد، وضاقه أن يسب بشر المهلب ويطعن في مقدرته وشرفه، وعلق عبد الرحمن لخاصته على ما قاله بشر في حق المهلب «.. فـترك أن يوصيني بالجند، وقتـال العدو .. وأقبل يغريني بابن عمتي كأني من السفهاء..»[2]. وتظاهر بأنه يستجيب لبشر وهو يضمر في نفسه التعاون مع المهلب والطاعة له.

وكان المهلب عندما وصل إلى رامهـرمز والتقى بالأزارقـة، أقام خندقاً حول معسكره وتحرز من مـفاجآت الأزارقة التي خبرها لطول عـهده بهم، وأقبل جيش الكوفـة بقيادة عبـد الرحـمن بن مـخنف فنـزل بالقـرب من معسكره، ولم تمض عشرة أيام حتى جاء إلى رامهـرمز خبر وفاة بشر بن مروان في البصرة سنة ٧٤هـ/٦٩٣م[3].

وعندما بلـغ جند البـصـرة والكوفـة خـبـر مـوت بشـر بن مـروان لم يستقروا في مواقعهم لتحقيق الهدف الذي جاءوا من أجله إلى رامهـرمز، فانسحب عدد كبير من الجند، ويتضح من روايـة الطبري أن معظم الذين هربوا من رامهـرمز وكرهوا مواصلة القتال هم من أهـل الكوفة الذين كانوا تحت إمرةعبد الرحمن بن مخنف، وكان على رأس الهاربين بعض قواده مثل

(١) الكامل، ج ٤ ، ص ٣٦٧.
(٢) طبري ، ج ٦ ، ص ١٩٦ – ١٩٧.
(٣) الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٦٦.

Scanned by CamScanner

زخر بن قيس، وإسحاق بن محمد بن الأشعث، ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد، ورغم أن ابن مخنف أرسل في أثرهم ابنه جعفراً، وتمكن من رد إسحاق ومحمد إلا أنهما تمكنا من الهرب مرة أخرى[1] وفشلت محاولات والي البصرة في إقناع هؤلاء الفارين بالعودة إلى ميدان المعركة، وكانوا مازالوا في الأهواز، وأرسل لهم كتاباً قرأه عليهم أحد رجاله به الكثير من التهديد والوعيد إن لم يستجيبوا لأوامره بالعودة، ولكن زخر وأصحابه سخروا منه ولم يلتفتوا إليه[2]، وأرادوا دخول الكوفة، وكتبوا إلى واليها عمرو بن حريث يستأذنونه في الدخول، ورغم رفض والي الكوفة لمطلبهم إلا أنهم تسللوا إلى المدينة ليلاً، وظلوا بها حتى مجئ الحجاج سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤م.

وبالنظر لما سبق من أحداث يمكننا أن نرجح أن معظم أصحاب المهلب من أهل البصرة ظلوا في مكانهم في رامهرمز، ولم يسارعوا إلى الانسحاب، وأن أصحاب ابن مخنف من أهل الكوفة هم الذين تركوا أماكنهم إلى مصرهم، مما يوحي بأن خروجهم كان عن غير رغبة واقتناع، فآثروا السلامة بالعودة بعد موت أميرهم، أو لأنهم رفضوا أن يعملوا تحت قيادة المهلب، وقد علموابتحريض بشر لابن مخنف بعدم التعاون معه وصادفوا غير ذلك، ويفهم هذا المعنى من قول الحجاج بعد ولايته الكوفة مخاطباً هؤلاء الفارين «.. وبلغني رفضكم المهلب، وإقبالكم على مصركم عصاة مخالفين»[3].

(١) طبري، ج ٦، ص ١٩٧.
(٢) الكامل، ج ٤، ص ٣٦٦.
(٣) نويري، ج ٢١، ص ٢١٠.

وكيفما كان الأمر فإن القوات الباقية في رامهرمز رغم نقص عددها إلا أن القيادة الحكيمة للمهلب والتعاون بينه وبين ابن مخنف قد مكنهما من احتياز الأزمة المفاجئة بسلام، ولم يتعرضوا لخطر الأزارقة، فنحن لا نقرأ عن معارك دارت بين جيش المهلب والأزارقة منذ وفاة بشر بن مروان وحتى ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤م[1].

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن معظم جيش المهلب بقي معه في رامهرمز بعد وفاة بشر بن مروان، ما يشير إليه ابن أعثم من أن المهلب كان معه في رامهرمز في ذلك الوقت عشرة آلاف رجل وهو العدد الذي صحبه عند خروجه من البصرة ووقف المهلب في أصحابه خطيباً وقال: «إن كنتم إنما تقاتلون هذا العدو لبشر بن مروان فقد مات بشر، وإن كنت إنما تقاتلون لله فاثبتوا على ما أنتم عليه، فإن أمير المؤمنين حي، والعراق لابد لها من أمير»[2].

ومن جانب آخر نلاحظ أن الأزارقة الذين كانوا يراقبون معسكر المهلب قد فرحوا لموت بشر، وانسحاب أعداد كثيرة من جيش العراق. ولكنهم في نفس الوقت كانوا يعلمون أن المهلب مازال في معظم رجاله من الأزد، وأنه يمكنه أن يتصدى لهم بقوة إذا فكروا في استغلال الموقف لصالحهم، ولما شاور قطري بن الفجاءة أصحابه فيما يجب عمله في هذا الموقف، كان الرأى السائد هو ما قاله عمرو القنا «اترك المهلب ما تركك، وأرده ما أرادك»[3] ولذلك لم يغامر الأزارقة بالهجوم على المهلب رغم قلة

(١) راجع: طبري، ج ٦، ص ٢٠٢، نويري، ج ٢١، ص ١٥٢.
(٢) راجع: ابن أعثم، م ٣، ص ٤٢٢ – ٤٢٣.
(٣) ابن أعثم، م ٣، ص ٤٢٤.

Scanned by CamScanner

قواته آنذاك. كما أن المهلب كان حريصاً على أن يحشد إليه عبد الملك الجيوش في أسع وقت، ليتمكن من التصدي لأي هجوم من جانب الأزارقة، فكاتبه بذلك، وحذر من خطورة الحال مع قلة ما تحت قيادته من جند، وخطر الأزارقة على البصرة[1].

** ** **

بين آل المهلب والحجاج (٧٥-٨٣هـ/٦٩٤-٧٠١م)

كانت الأحداث التي وقعت عند رامهرمز في أعقاب وفاة بشر بن مروان والتي سبق شرحها، من أهم العوامل التي جعلت عبد الملك بن مروان يبحث عن رجل قوي يتولى شئون العراق ويقبض على زمام الأمور بيد من حديد ويعيد هيبة الخلافة بين المتمردين الذين انسحبوا من ميدان المعركة وبين الأزارقة الذين عاثوا في أقاليم الدولة الشرقية، فلما تولى الحجاج بن يوسف الثقفي ولاية العراق سنة ٧٥هـ/٦٩٤م كان أول مهامه إرسال البعوث إلى المهلب، ورد هؤلاء الذين تمردوا على قيادتهم، وتركوا الحرب دون مبرر، وجاء في خطاب الحجاج المشهور الذي ألقاه في الناس من على منبر الكوفة قوله: «.. قد بلغني رفضكم المهلب، وإقبالكم على مصركم عصاة مخالفين، وإني أقسم لكم بالله لا أجد أحداً بعد ثلاثة إلا ضربت عنقه، وانهبت داره»[2].

وأمر الحجاج العرفاء بحشد الرجال إلى المهلب وأن يفتح باب الجسر في طريق فارس ليلاً ونهاراً، ويروي الطبري أنه عبر الجسر في نهاية المهلة التي حددها الحجاج – وهي ثلاثة أيام – أعداد كثيرة من الناس، بعد النداء الذي

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٣، ص ١٢٦.
(٢) طبري، ج ٦، ص ٢٠٤.

أطلقه الحجاج بأن من ظل في الكوفة من جند المهلب بعد الموعد فقد أحل دمه «فخرج الناس فازدحمو على ا لجسر، وخرجت العرفاء إلى المهلب وهى برامهرمز فأخذوا كتبه بالموافاة، فقال المهلب: قدم العراق اليوم رجل ذكر[1] اليوم قُتول العدو»[2].

وأتبع الحجاج حملته العنيفة في الكوفة بحملة مماثلة في البصرة، وتوعد العصاة من جند المهلب، وأمهلهم ثلاثة أيام، فسارع العسكر للالتحاق بفرقهم وخرج الحجاج بنفسه متوجهاً إلى ميدان الصراع مع الأزارقة، حتى اقترب من معسكر المهلب فنزل في «رستقباذ»[3] على بعد ثمانية عشر فرسخاً من رامهرمز وذلك في شعبان سنة ٧٥هـ/٦٩٤م، وقال حين نزل هذا المكان «يا أهل المصرين (يقصد الكوفة والبصرة) هذا المكان والله مكانكم، شهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة، حتى يُهلِكَ الله عدوكم، هؤلاد الخوارج المطلين عليكم»[4].

وهكذا أعلن الحجاج الحرب التي لا هوادة فيها ضد الأزارقة مهما طال الزمن وحشد لها كل ما يستطيع حشده من الرجال، «فاشتدت ظهور المسلمين، وساء ذلك الخوارج، وقد كانوا رجوا أن يكون من الناس فرقة واختلاف»[5] وكتب الحجاج إلى المهلب يقره على حرب الأزارقة، ويعلن ثقته فيه وفي مقدرته على تولي هذه المهمة الخطرية، وحاجته إليه عن رغبة

(١) أبو هلال العسكرى، الأوائل، ج ٢، ص ٦٧ (الرياض ١٩٨١).
(٢) طبري، ج ٦، ص ٢٠٧. نويري، ج ٢١، ص ٢١٢.
(٣) رستقباذ: من أرض دستوا، ودستوا بلده بفارس، وقيل بالأهواز (فتوح، ص ٣٤٥، معجم، ج ٣، ص ٤٣، مراصد، ج ٢، ص ٥٢٧).
(٤) نويري، ج ٢١، ص ١٥٢.
(٥) طبري، ج ٦، ص ٢١٠، ابن خلدون، م ٣، ص ٩٥.

Scanned by CamScanner

واقتناع، وجاء في كتابه «.. فإن بشر بن مروان وجهك إلى الحرب التي للأزارقة وكان مستكرهاً لنفسه فيك، وأنا أريدك لحاجتي إليك، فأبشر وقر عيناً، واثبت على حرب القوم»[1].

كما اعترف الحجاج للمهلب بشرطه الذي اشترطه على أهل البصرة قبل بداية حرب الأزارقة سنة ٦٥هـ/٦٨٤م بأن يكون له خراج ما غلب عليه من البلاد «فكانت الأموال تنتقل إليه من أرض فارس في البدر مكتوب عليها: هذا ما أطعم الله المهلب بن أبي صفرة مما غلب عليه من بلاد الله، يحمله إلى قومه من الأزد لا يعترض عليه معترض»[2].

ونلاحظ في هذه المرحلة من القتال مع الأزارقة أن قيادة الجيوش التي كانت في رامهرمز لم تكن واحدة – رغم أوامر الحجاج للمهلب وإقراره على حرب الأزارقة، فكان أهل البصرة يقودهم المهلب، وأهل الكوفة يقودهم عبد الرحمن ابن مخنف. وفي البداية نجحت جيوش الحجاج في إجلاء الأزارقة عن رامهرمز «من غير قتال شديد»[3] حسب رواية الطبري، والظاهر أن هذه كانت سياسة الأزارقة عندما يشعرون بقوة جيوش الخلافة وخطورة المواجهة، فتراجعوا إلى سابور، ونزلوا مدينة كارزون[4] لتنظيم صفوفهم وتبعهم المهلب وعبد الرحمن بن مخنف وكان ذلك في رمضان سنة ٧٥هـ/٦٩٤م، ودارت بين الجانبين معارك عنيفة قُتل فيها أعداد كبيرة من

(١) المبرد، ص ٢٦٦.
(٢) ابن أعثم، م ٤، ص ١٤.
(٣) طبري، ج ٦، ص ٢١٠.
(٤) كارزون مدينة بفارس بين البحر وشيراز (راجع معجم البلدان لياقوت).

الجانبين، وقتل خلال ذلك عبد الرحمن بن مخنف وصمد المهلب برجاله في وجه الأزارقة[1].

ونتيجة لعدم توحد القيادة العسكرية في هذه المعركة، فقد اختلفت الروايات حول أسباب هزيمة جيش ابن مخنف وقتله على يد الأزارقة فأهل البصرة يذكرون رواية مفادها أن المهلب عندما واجه جيوش الأزارقة عند كارزون، خندق على قواته وتحرز من عدوه وكانت هذه عادته في التعامل مع الأزارقة في المعارك التي سبق الإشارة إليها. وأشار المهلب على ابن مخنف أن يخندق هو الآخر ويتحرز على معسكره، فرفض أصحاب ابن مخنف مشورة المهلب وكأنهم أنفوا أن يأخذوا أوامرهم منه أو يعملوا تحت قيادته، وقالوا: «نحن خندقنا سيوفنا»[2] فحذر المهلب ابن مخنف من خطر أن يداهمه الأزارقة على غرة فلا يستطيع الثبات لهم، ولكن صمم أصحابه على رأيهم[3] فلما بادر الأزارقة بالهجوم كان هدفهم في البداية معسكر المهلب، فوجدوه قد أخذ الحيطة ولم يستطيعوا اقتحام خندقه لمناعته، فمالت الأزارقة إلى معسكر ابن مخنف واشتبكوا معه في قتال عنيف، فلما احتدم القتال «انهزم عنه أصحابه»[4] فحلت الهزيمة بابن مخنف فقُتل وقُتل معظم الذين ثبتوا معه في المعركة[5].

ولكن أهل الكوفة – وهم جيش ابن مخنف – يذكرون رواية أخرى تشير إلى أن المهلب قد اصطدم بالأزارقة في بداية المعركة، ولم يستطع الثبات

(١) راجع التفاصيل، نويري، ج ٢١، ص ١٥١ – ١٥٢.
(٢) الكامل، ج ٤، ص ٣٨٨.
(٣) المبرد، ص ٢٦٧.
(٤) طبري، ج ٦، ص ٢١٢.
(٥) نويري، ج ٢١، ص ١٥٢.

Scanned by CamScanner

لهم، مما اضطره إلى الاستنجاد بعبد الرحمن بن مخنف الذي أمده بالخيل والرجال، فلما رأت الأزارقة ذلك، أدركت أن معسكر ابن مخنف قد خف رجاله، فجعلوا يإزاء المهلب من يشغله، وانصرفوا بمعظم قواتهم إلى معسكر ابن مخنف ،وحملت عليهم الخوارج فقاتلتهم قتالاً شديداً ثم إن الناس انكشفوا عنه،[1] فقُتل ابن مخنف وقتل معظم أصحابه.

والظاهر أن رواية أهل الكوفة كانت تبريراً لهزيمتهم في هذه المعركة التي قُتل فيها قائد هم، وأرادوا إلقاء اللوم في ذلك على المهلب بن أبي صفرة. ونلاحظ أنه في كلا الروايتين – رواية أهل البصرة وأهل الكوفة – تؤكد المصادر أن أهل الكوفة انكشفوا عن ابن مخنف ولم يصمدوا معه في القتال. ويؤكد هذا الأمر ما سبق أن أشرنا إليه من تسارع أهل الكوفة إلى الفرار والعودة إلى مصرهم في أعقاب وفاة بشر بن مروان.

وكيفما كان الأمر، فإن الخليفة عبد الملك بن مروان كان يدرك حقيقة الموقف في ميدان المعركة ضد الأزارقة، وأن اللائمة في هذه الهزيمة تقع على عاتق أهل الكوفة، فلما وصله خبر مقتل عبد الرحمن بن مخنف ،نعى عبد الرحمن، وذم أهل الكوفة،[2].

بعث الحجاج بعتاب بن ورقاء خلفاً لابن مخنف لقيادة أهل الكوفة، وإراد أن يتفادى ما حدث لابن مخنف عندما لم يستمع إلى مشورة المهلب، فكانت أوامر الحجاج إلى عتاب واضحة، فإذا دارت المعارك فعليه أن يستمع إلى المهلب ويطيع، فساءه ذلك، ولكن لم يجد بُداً من الإذعان والطاعة[3]

(١) طبري ، ج ٦ ، ص ٢١٢ ، الكامل ، ج ٤، ص ٩٨٩.
(٢) طبري ، ج ٦ ، ص ٢١٣ ، الكامل، ج ٤، ص ٩٨٩.
(٣) الكامل ، ج ٤، ص ٣٩٠ ، نويري ، ج ٢١ ، ص ١٥٣.

ولكن العصبية القبلية كان لها تأثيرها الخطير على تفكير القادة، فعتاب كان حاقداً على المهلب ويأنف من العمل تحت قيادته مما أثار الخلافات بين الرجلين وكاد أن يحدث بينهما اشتباك في مجلس المهلب، ورفع المهلب القضيب ليضرب عتاب لولا أن حجز بينهما المغيرة بن المهلب[1]. ولما وصلت هذه الأخبار إلى الحجاج أدرك خطر وجود قائدين متنافسين في مواجهة الخوارج، واستغل فرصة شكوى عتاب من المهلب فأمره بالعودة إلى الكوفة، فقام المهلب بإسناد قيادة ما تحت إمرة عتاب من الجنود إلى أحد أبنائه وهو حبيب بن المهلب[2].

وهكذا توحدت قيادة الحرب ضد الأزارقة وأصبحت بيد آل المهلب وتمكن المهلب في هذه المرحلة من الصراع أن يوجه ضربات عنيفة إلى الأزارقة في فارس وكرمان واستمر المهلب يناجزهم ثمانية عشر شهراً دون حسم[3] ولكنه نجح فى تضييق الخناق على مواردهم باستيلائه على معظم إقليم فارس وحجب ما كانوا يحصلون عليه من هذا الإقليم الغنى[4]، وخلال هذه الفترة كان الحجاج يتابع معارك المهلب وينيه ضد الأزارقة، ويحثه على الإسراع في حسمها، وظن أنه يطيل أمد الحرب حتي يجبي أكبر قدر من الأموال، فأراد الحجاج أن يجبي خراج فارس عن طريق عمال من قِبله، ويحرم المهلب من هذا المورد الذي يعتمد عليه في تمويل عسكره.

ومهما كان هدف الحجاج من هذا التصرف، فإن المصادر توضح أن عين الخليفة عبد الملك كانت تراقب ما يجري بين المهلب والحجاج وبدايات التنافس

(١) الكامل ، نفسه.
(٢) طبري ، ج ٦ ، ص ٢١٣.
(٣) نويري ، ج ٢١ ، ص ١٥٤.
(٤) طبري ، ج ٦ ، ص ٣٠١.

Scanned by CamScanner

بين الرجلين، كما أدرك الخليفة خطورة أن يحرم المهلب من أموال فارس، وتأثير هذا على صمود عسكره في مواجهة الأزارقة، فكتب عبد الملك إلى الحجاج سنة ٧٧هـ/٦٩٦م «أما بعد، فدع بيد المهلب خراج فارس، فإنه لابد للجيش من قوة، ولصاحب الجيش من معونة»(١).

ورغم استجابة الحجاج لأوامر الخليفة، إلا أن مشاعر الحجاج بدأت تتغير نحو المهلب، وتحركت عوامل العصبية القبلية في نفسه، وكان يتمنى لو تولى أمر الخوارج رجل من القيسية فيحوز المال والثروة واحترام الخليفة وتقديره ويوضح هذه المشاعر بجلاء، ما جاء في كتاب الحجاج إلى المهلب بن أبي صفرة جاء فيه: «فإنه بلغني أنك أقبلت على جباية الخراج، وتركت قتال العدو، وإني وليتك وأنا أرى مكان «عبد الله بن حكيم المجْاشعي»(٢) و «حسان بن حصين الحبطي»(٣)، واخترتك وأنت من أهل عُمان، ثم رجل من الأزد»(٤).

ورد المهلب على الحجاج بأنه يتحين الفرص لتحقيق النصر النهائي على الأزارقة وأنه لن يتم له ذلك إلا في ثلاثة أحوال: موت زعيم الأزارقة قطري بن الفجاءة، أو وقوع الفرقة والاختلاف فيما بينهم، أو محاصرتهم

(١) طبري، نفسه.
(٢) المجاشعي منسوب إلى مجاشع بطن من تميم وعامتهم بالبصرة (راجع: محمد بن أبي عثمان الحازمي، النسب، ص ١١، القاهرة ١٩٧٣).
(٣) الحبتي أو الحبطي نسبة إلى حبتة بنت مالك بن عوف (راجع: محمد بن أحمد الذهبي، المشتبه، ج ١، ص ١٣٩، القاهرة ١٩٦٢).
(٤) المبرد، ص ٣٦٨.

حتى يقتلهم الجوع(١)، ولكن الحجاج لم يقتنع بهذه المبررات التي ساقها المهلب وظل يطارده بكتبه ورسله لإنهاء الحرب مع الأزارقة في أسرع وقت.

وفي رواية للطبري أن الحجاج أرسل في سنة ٧٧هـ/٦٩٦م البراء بن قبيصة حاملاً كتاباً للمهلب يحثّه فيه على مجاهدة الأزارقة، ويحذره من «العلل والأباطيل»، وأراد المهلب أن يرى رسول الحجاج بنفسه كيف تكون المعارك مع الأزارقة «فأخرج المهلب بنيه، كل ابن في كتيبة، وأخرج الناس على راياتهم .. وجاء البراء بن قبيصة فوقف على تل قريب حيث يراهم، فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب، والرجال على الرجال، فيقتتلون أشد قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار، ثم انصرفوا، فجاء البراء بن قبيصة إلى المهلب فقال له: لا والله ما رأيت كبنيك فرساناً قط، ولا كفرسانك من العرب قط، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط فرجع المهلب بالناس، حتى إذا كان عند العصر خرج إليهم وبنيه في كتائبهم، فقاتلوه كقتالهم في أول مرة»(٢).

ونستنتج من هذا البيان العملي ليوم قتال ضد الأزارقة مدى ضروة المعارك التي كان يخوضها آل المهلب ضدهم وقوة بأس عدوهم وصبرهم على القتال، وعندما سأل المهلب مبعوث الحجاج عن تعليقه على ما شاهد قال: «رأيت قوماً والله ما يعينك عليهم إلا الله»(٣) فطلب المهلب من البراء أن ينقل على لسانه للحجاج «أن البلاء كل البلاء أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره»(٤).

(١) ابن أعثم، م ٤، ص ١٤.
(٢) طبري، ج ٦، ص ٣٠٢.
(٣) المبرد، ص ٢٧١.
(٤) الجاحظ، البيان، ج ١، ص ٢٥٣.

Scanned by CamScanner

وقد شهدت هذه المرحلة أقوى المعارك بين آل المهلب من جهة وبين الأزارقة من جهة أخرى، ومن تتبع سير هذه المعارك التي جاءت بتفاصيلها المصادر المختلفة يمكننا أن نلاحظ العبقرية العسكرية والشجاعة النادرة التي كان يتمتع بها المهلب وأسرته ورجاله الذين كانوا يقودون الفرق، ويخوضون المعارك الجانبية تحت قيادته.

وظل المهلب يطارد الأزارقة ويطردهم من مدينة إلى أخرى ومن موقع إلى آخر مستعملاً معهم أسلوب الهجوم المفاجئ أحياناً، وتلقي الصدمة والدفاع أحياناً أخرى، والتريث وعدم الاشتباك ثالثة[1]، وكان المهلب ينصح أبناءه قائلاً: «لا تبدؤوهم بقتال حتى يبدؤوكم فيبغوا عليكم، فإنهم إذا بغوا نصرتم عليهم»[2]، وكان ينهاهم عن مطاردتهم إذا ولوا الأدبار منهزمين وقد نهى ابنه المغيرة عن مطاردتهم وهم جرحى «فإن الكلب إذا جرحته عقر»[3].

وكان آل المهلب يفخرون بانتمائهم إلى الأزد، وكانوا في المواقف الخطيرة التي تحتاج إلى تكاتف وتضخية يلجأون إليهم لتأكدهم من ولائهم وحسن بلائهم، فعندما تصدى عطية بن الأسود في فرسان الأزارقة في إحدى المعارك للمهلب، أسند المهلب مهمة قتاله إلى ابنه يزيد وقال له: «يا بني هذا عطية بن الأسود قد أقبل في فرسان الأزارقة، فاخرج إليه في إخوانك الذين تثق بهم من الإقدام على المكروه «فما كان من يزيد إلا أن نادى «في فرسان الأزد فاجتمعوا إليه من كل أوب»[4].

(١) راجع تفاصيل المعارك: ابن أعثم، م ٣، ص ٢٣ وما بعدها، المبرد، ص ٢٧٢ وما بعدها.
(٢) المبرد، ص ٢٧٧.
(٣) ابن أعثم، م ٣، ص ٢١٣.
(٤) ابن أعثم، م ٤، ص ٣٠.

واستمرت المعارك في الفترة من سنة ٧٥هـ/٦٩٤م إلى سنة ٧٧هـ/٦٩٦م ما يقرب من ثمانية عشر شهراً دون هوادة بين المهلب والأزارقة[1] حتى لاحت إحدى الفرص التي كان يترقبها المهلب لينهي صراعه الطويل مع الأزارقة، فقد وقع الاختلاف بين صفوفهم وانقسموا على أنفسهم، ولما بلغ المهلب ما حل بهم من الاختلاف قال لأصحابه: «أبشروا لهذا الذي كنت أرجوه من هؤلاء الحوارج وقد أذن الله في هلاكهم وبوارهم»[2].

وتذكر الروايات التاريخية أن سبب الاختلاف أن عاملاً لقطري بن الفجاءة زعيم الأزارقة على كرمان يدعى المقعطر الضبي، قتل رجلاً ذا بأس من الأزارقة، فوثبت الأزارقة إلى قطري وطلبوا منه أن يمكنهم من المقعطر ليقتلوه بصاحبهم، فرفض ذلك، ودافع عن المقعطر واعترف بالخطأ الذي وقع فيه المقعطر ولكنه لم يوافق على قتله[3] وصمم كل فريق على موقفه فوقع الاختلاف بينهم، فولى المعارضون عبد ربه الكبير وخلعوا قطرياً، ويقال أن قطرياً قد بايعه عدد من الأزارقة يقدره الطبري «نحواً من ربعهم أو خمسهم»[4] وانضم الباقون إلى عبد ربه الكبير.

وبعض الروايات ترجع سبب الاختلاف بين الأزارقة إلى مؤامرة دبرها المهلب بن أبي صفرة ضدهم، فيقال أن رجلاً حداداً من الأزارقة كان يصنع نصالاً مسمومة فيرمي بها أصحاب المهلب، فشكا أصحابه منها، فوعدهم بالتخلص من هذا الشر، فوجه المهلب رجلاً من أصحابه ومعه

(١) نويري، ج ٢١، ص ١٥٥.
(٢) ابن أعثم، م ٤، ص ٤١.
(٣) نويري، ج ٢١، ص ١٥٥.
(٤) طبري، ج ٦، ص ٣٠٣.

Scanned by CamScanner

كتاب أمره أن يلقيه في عسكر قطري في غفلة منهم، ففعل ووقع الكتاب في يد قطري فإذا فيه: أما بعد فإن نصالك وصلت، وقد أنفذت إليك ألف درهم فاقبضها وزدنا من هذه النصال. فأحضر قطري الصانع وواجهه بالكتاب والدراهم، فأنكر ما جاء فيه، فأمر قطري بقتله ، فأنكر عليه عبد ربه الكبير وبعض أصحابه قتله فوقع الاختلاف بينهم(١).

ثم دس المهلب بين الأزارقة رجلاً نصرانياً، وأمره أن يسجد لقطري أمام أصحابه ويقول له أنا سجدت لك، ففعل النصراني، فاحتج الأزارقة على قطري بأن الرجل عبده من دون الله، وقتلوا النصراني، ولم ير قطري مبرراً لقتله فاختلف الكلمة ووقع الشقاق(٢).

ومن المرجح أن المهلب عندما علم بأمر الخلاف بين الأزارقة أراد تعميقه بما دبره من المؤامرات السابق ذكرها، وكيفما كان الأمر فإن المهلب كان يرقب الموقف بين فرق الأزارقة المتنازعة بحذر شديد، ولم يتسرع بالتدخل ضدهم رغم تنازعهم، وعندما أرسل كتاباً إلى الحجاج يخبره بما يعانيه الأزارقة من فرقة ونشوب الحرب بين قطري وعبد ربه الكبير، كان رد الحجاج بعيداً عما يشغل ذهن المهلب في ذلك الوقت. فجاء فيه: «فإذا أتاك كتابي هذا فناهضهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا فتكون مئونتهم عليك أشد»(٣) ولكن المهلب كان يدرك أن تدخله في هذا الوقت قد يكون سبباً فى جمع شمل الأزارقة مرة أخرى، وجاء في رده على الحجاج ما يوضح سياسته في هذه المرحلة «لست أرى أن أقاتلهم ما داموا

(١) راجع التفاصيل : المبرد ، ص ٢٧٧ ، نويري ، ج ٢١ ، ص ١٥٥.
(٢) المبرد ، ص ٢٧٨.
(٣) طبري ، ج ٦ ، ص ٣٠٣.

يقتل بعضهم بعضاً، وينقص بعضهم عدد بعض، فإن تموا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكهم، وان اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقق بعضهم بعضاً، فأناهضهم حينئذ، وهم أهون ما كانوا وأضعف شوكة»(١).

وانتظر المهلب حتى انتهت الاشتباكات بين الأزارقة وتفرقت جموعهم، فريق بزعامة قطري بن الفجاءة وتقدر حشوده بحوالي عشرة آلاف(٢) اتجه بهم قطري إلى مدينة جيرفت إحدى مدن كرمان. وفريق بزعامة عبد ربه الكبير وكان يقود سبعة آلاف، وفريق ثالث بقيادة عبد ربه الصغير في أربعة ألاف، وكان كل فريق منهم يرغب في حرب المهلب ليظهر أمام الناص صبره وجهاده وأنه أفضل من غيره(٣).

حاصر المهلب مدينة جيرفت وبها قطري ورجاله حصاراً شديداً وساءت الأحوال داخل المدينة المحاصرة حتى اضطر قطري إلى الخروج من الحصار ومواجهة مصيره في صدام مع جيش المهلب، ويبدو أن عبد ربه الصغير قد ساءه ما آل إليه حال قطري فجاء لمساندته بأربعة آلاف من الأزارقة، فأسند المهلب إلى ابنه يزيد مهمة التصدي له وإبعاده عن الاشتراك في الحرب بجانب قطري، وتمكن يزيد من أن يفتك بعبد ربه الصغير ويقتله في معظم أصحابه وظفر بعسكرهم وحوى ما فيه(٤) وفي نفس الوقت استولى المهلب على مدينة جيرفت(٥) بعد أن انسحب منها قطري دون قتال هارباً من الصدام مع المهلب حتى وصل مدينة الري ومعه عبيدة ابن هلال ومن تبعه

(١) نويري ، ج ٢١ ، ص ١٥٦.
(٢) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ٤٥.
(٣) ابن أعثم ، نفسه ، ص ٤٢.
(٤) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٧٥.
(٥) المبرد ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣.

Scanned by CamScanner

من الأزارقة، وعند الري افترقوا فتوجه قطري إلى ناحية طبرستان[1] ومضى عبيدة بن هلال في نفر من أصحابه إلى مدينة قومس[2].

أقام المهلب في مدينة جيرفت وأرسل إلى الحجاج بتطور المعارك مع الأزارقة وبأنه مقيم على حرب عبد ربه الكبير وطلب منه أن يوجه في أثر قطري رجلاً جلداً في جيش[3] للقضاء عليه.

وكانت المعركة الحاسمة في هذا الصراع مع الأزارقة حول مدينة جيرفت. وقد حشد عبد ربه الكبير لهذه المعركة كل ما يستطيع حشده من الرجال وحمسهم على الانتقام من المهلب الذى استولى على جيرفت واحتوى على غنائم أصحابهم وبني أعمامهم. وكعادة المهلب في صراعة الطويل مع الأزارقة، كان يعرف كيف يتعامل معهم بأسلوب القائد المحنك الذي خبر عدوه وأدرك نواياه، فما كاد يبلغه خبر قدوم الأزارقة إلى جيرفت حتى أمر أصحابه بالرحيل عن المدينة، وخرج منها كالمنهزم، وأقبل عبد ربه في الكمين الذي أعده له المهلب وضرب الحصار على نفسه، فما كاد عبد ربه يدخل جيرفت حتى عاد المهلب بكل حشوده فحصره داخلها، ووضعه في نفس الموقف الذي كان فيه قطري منذ وقت قليل، وأمر المهلب أصحابه بعدم الاشتباك معهم في قتال .. واشتد الحصار على الأزارقة حتى اضطروا إلى

(١) طبري ، ج ٦، ص ٣٠٤، وطبرستان: ناحية بين العراق وخراسان بقرب بحر الخزر ذات مدن وقرى كثيرة (آثار البلاد، ص ٢١٧).
(٢) طبري ، ج ٦، ص ٢١١، وقومس كورة كبيرة واسعة، بين الري ونيسابور (راجع: مراصد الاطلاع، ج ٣، ص ١١٣٤).
(٣) المبرد ، ص ٢٨٨.

الخروج[1] وعبّأ المهلب أصحابه في كتائب، وجعل على كل كتيبة رجلاً من أولاده، وقال لهم: «إنما أُقاتل لله، وأنت تقاتلون لله وعن أبيكم، وتذبون عن دين الله .. وليس أحد أولى بجربهم منكم فقاتلوا واصبروا .. واعلموا أنكم لا تملكون رقاب الناس، وإنما تملكون طاعتهم»[2].

ودارت معركة عنيفة حول جيرفت اشتد فيها القتل حتى عقرت الخيل وتكسر السلاح وقتل الفرسان، وعندما أدرك عبد ربه النهاية نزل عن فرسه وكسر جفن سيفه وتبعه أصحابه، وجمع المهلب أولاده وأبطال قومه وحملوا عليهم وعظم الخطب حتى قال المهلب: ما مر بى يوم مثل هذا[3] وأسفرت المعركة عن هزيمة مدمرة للأزارقة قُتل فيها عبد ربه الكبير وقُتل معه ما يقرب من أربعة آلاف من أصحابه حتى سالت دماؤهم إلى وادي جيرفت فاحمر ماء الوادي[4] ولم ينج منهم إلا القليل فولى بعضهم هاربين واستأمن بعضهم المهلب فأمنهم.

ودخل المهلب مدينة جيرفت بعد النصر فاستولى على ما كان فيها من أمتعة الأزارقة وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وسُبُوا لأنهم كانوا يسبون المسلمين[5] وبعد هذه المعركة الفاصلة، تم مطاردة قطري بن ا لفجاءة حيث قُتل في نفس السنة (٧٧هـ/٦٩٦م) في شِعب من شِعاب طبرستان، كما قُتل

(١) نويري ، ج ٢١ ، ص ١٥٦.
(٢) راجع الفا صيل : ابن أعثم، م ٤ ، ص ٤٧ – ٤٨.
(٣) نويري ، ج ٢١ ، ص ١٥٧.
(٤) ابن أعثم، م ٤ ، ص ٥٠.
(٥) طبري ، ج ٦ ، ص ٣٠٤.

Scanned by CamScanner

عبيدة بن هلال في قصر تحصن به بقومس[1] وانتهى بهذا خطر الأزارقة على الدولة الأموية بعد صراع عنيف قاد معظم مراحله آل المهلب.

أرسل المهلب إلى الحجاج مبشّراً بالنصر على الأزارقة، فلما دخل البشير مجلس الحجاج، سأله عما كان عليه حالهم في حرب الأزارقة، وطلب منه أن يخبره عن آل المهلب، فقال له: «المغيرة فارسهم وسيدهم، وكفى بيزيد فارساً شجاعاً، وجوادهم وسخيهم قبيصة، ولا يستحي الشجاع أن يفر من مدرك، وعبد الملك سم ناقع، وحبيب موت زعاف، ومحمد ليث غاب، كفاك بالمفضل نجدة، قال الحجاج: فأيهم كان أنجد؟ قال: كانوا كالحلقة المفرغة لا يُدرى أين طرفها»[2].

فاستحسن الحجاج ما قاله الرجل في آل المهلب، وكتب إلى المهلب يشكره على جهوده، ويعتذر إليه عما بدر منه أثناء المعارك من استبطائه في حرب الأزارقة[3] وأمره أن يولي كرمان من يثق به من أبنائه ويقدم عليه في أسرع وقت في آل بيته وفرسانه ولا يتخلف منهم أحد فلما قدم المهلب على الحجاج أظهر إكرامه وبره، وقال: «يا أهل العراق أنتم عبيد المهلب»[4]، وطلب منه أن يعرض عليه فرسانه الذين خاضوا المعارك الطاحنة وأبلوا في

(١) راجع التفاصيل: طبري ، ج ٦، ص ٣٠٩ وما بعدها، نويري، ج ٢١، ص ١٥٩ وما بعدها.
(٢) المبرد، ص ٢٩٤، المسعودي ، مزوج ، ص ١٨٥ – ١٨٦.
(٣) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ٥٦.
(٤) نويري ، ج ٢١ ، ص ١٨٥، – وكانت البصرة يطلق عليها بصرة المهلب لأنه حمى المدينة من الخوارج، وكان أهل الكوفة يقولون لأهل البصرة «يا موالي المهلب» لنفس السبب ولسيطرة آل المهلب ومكانتهم في البصرة ومن شعر الحسن بن هانئ في البصرة:

ألا كل بصري يرى إنما العلى * مكممة سحق لهن جرين
لأزد عمان بالمهلب ثروة إذا افتخر الأقوام ثم تلين

قتال الأزارقة، وأن يصف له بلاءهم، وكان كُتّاب الحجاج يسجلون له ما يقوله المهلب عن رجال. ثم أقام الحجاج مجلساً خاصاً للاحتفال بهذه المناسبة، وكان ينادي على القواد والفرسان حسب مراتبهم وكان في مقدمتهم بنو المهلب: المغيرة ويزيد ومدرك وقبصة وحبيب والمفضل وعبد الملك ومحمد. وقال المهلب للحجاج: إنه والله لو تقدمهم أحد في البلاء لتقدمته عليهم، ولولا أن أظلمهم لأخرتهم. قال الحجاج: صدقت، وما أنت بأعلم بهم مني، وإن حضرت وغبت إنهم لسيوف من سيوف الله[1]. فأخذ الحجاج لا يذكر له المهلب رجلاً من أصحابه ببلاء حسن إلا صدّقه بذلك، فأكرمهم وأحسن العطاء لهم وزاد فيه ثم قال: هؤلاء أصحاب الفعال وأحق بالأموال، هؤلاء أصحاب الثغور وغيظ الأعداء[2].

(١) المبرد، ص ٢٩٨ – ٢٩٩.
(٢) الطبري، ج ٦، ص ٣١٩، الكامل، ج ٤، ص ٤٤٨.

Scanned by CamScanner

ولاية المهلب علي خراسان حتي وفاته
(٨٢هـ / ٧٠١م)

Scanned by CamScanner

الفصل الرابع
ولاية المهلب علي خراسان حتي وفاته
(٨٢هـ/٧٠١م)

كانت ولاية خراسان هي الجائزة التي حصل عليها المهلب بن أبي صفرة تقديراً لجهوده بلائه في القضاء على الأزارقة، فى سنة ٧٨هـ/٧٠٥م عزل عبد الملك بن مروان، أمية بن عبد الله بن خالد عن خراسان وسجستان وكان مستقلاً في ولايته عن الحجاج، وضمهما إلى أعمال الحجاج[١] فأسند الحجاج ولاية خراسان إلى المهلب. ويبدو أن المهلب كان حريصاً على البقاء في البصرة للراحة بعد العناء الذي بذله في قتال الأزراقة، فبعث ابنه حبيباً نائباً عنه إلى خراسان، فوافق الحجاج وقام بوداع حبيب بنفسه ووصله بعشرة آلاف درهم، وظل حبيب مقيماً في خراسان مدة عشرة أشهر حتى لحق به المهلب في سنة ٧٩هـ/٦٩٨[٢].

والظاهر من رواية للطبري أن الحجاج كان مازال يحمل في نفسه غيرة وحقداً على ما وصل إليه آل المهلب من ا لرفعة وعلو الشأن، فرغم مظاهر الاحتفال والتكريم التي أقامها الحجاج لآل المهلب ورجالهم، إلا أنه «أخذ المهلب بألف ألف درهم من خراج الأهواز، وكان ولاها إياه خالد بن عبد الله فقال المهلب لابنه المغيرة: إن خالداً ولاني الأهواز وولاك اصطخر[٣]، وقد أخذني الحجاج بألف ألف درهم فنصف عليّ ونصف عليك»[٤].

والعجيب في الأمر أن هذا القائد العظيم رغم فتوحته وانتصاراته وما حصل عليه من مغانم وما جباه من أموال، لم يكن يملك مثل هذا المبلغ حتى

---

(١) الكامل، ج ٤، ص ٤٤٨.
(٢) النويري، ج ٢١، ص ٢٦٨.
(٣) اصطخر: مدينة من بلاد فارس (آثار البلاد، ص ١٤٧).
(٤) البري، ج ٦، ص ٣٢٠.

Scanned by CamScanner

يسدده للحجاج، مما يؤكد ما كان يتسم به آل المهلب بوجه عام من سخاء وإغداق الأموال على رجالهم، واضطر المهلب للوفاء بما عليه إلى الاقتراض وبلغ به الحال أن باعت امرأته «خيرة القشيرية» حُلِيّاً لها ومتاعاً للوفاء بما عليه(١).

ونلاحظ أن المهلب في فترة ولايته على خراسان (٧٨-٨٢هـ/٦٩٧-٧٠١م) لم يركن إلى الدعة والراحة، واستمر في نشاطه العسكري، وظل مع بنيه يقتلون في هذه الجبهة قتالاً مستمراً ضد أعداء الإسلام، ويعملون لإخضاع البلاد لسيطرة الدولة الأموية «فَخَيَّل له بسمرقند وأخرى ببخارى، وأخرى بطخارستان - وكلما فتح فتحاً بولاية أخرج من ذلك الخمس فوجّه به إلى الحجاج، وقسم باقي الفيء في أصحابه، وفرح أهل خراسان المهلب عليهم فرحاً شديداً»(٢) لما حازوه من شرف الجهاد في سبل الله، وما حصلوا عليه من الغنائم.

كانت حركة المهلب بن أبي صفرة للغزو والجهاد في سنة ٨٠هـ/٦٩٩م عندما تحرك برجاله شرقاً، وقطع نهر بلخ، ونزل على كش (وهي إحدى مدن جرجان)(٣) وهناك وفد عليه ابن عم ملك الختل(٤) الذي كان على خلاف مع الملك وحرص المهلب على فتح هذه البلاد، فوجه معه المهلب ابنه يزيد، وتم حصار الختل والاستيلاء عليها، وانسحب يزيد عنها بعد

(١) الطبري، ج ٦، ص ٣٢١.
(٢) ابن أعثم، م ٤، ص ٥٨.
(٣) النويري، ج ٢١، ص ٢٠١، وكش: مدينة على ثلاثة فراسخ من جرجا على جبل يقرب سمرقند، حصينة مساحتها ثلاثة فراسخ فى مثلها، وقيل قرية من قرى أصبهان (فتوح، ص ٥١٤، ٥١٥، معجم، ج ٤، ص ٤٦٢، آثار، ض ٥٥٤).
(٤) الختل: كورة فيما وراء النهر (راجع معجم البلدان لياقوت).

أن صالح أهلها على فدية حملت إليه(١) كما وجه المهلب ابنه حبيباً إلى بخارى في جيش كبير يقدر بحوالي أربعين ألف رجل، ووقع الهزائم بأهل بخارى. وأخضعهم ورجع حبيب إلى أبيه في مدينة كش(٢) وكان المهلب قد اتخذها مقراً له لتحريك قواته في الفتوحات المختلفة، وأقام المهلب بكش يضبط الأمر ويجبي الخراج ولم يستجب إلى الآراء المتهورة التى كان أصحابها يطمعون في الغزو من أجل الزيد من الأموال، فعندما قيل له: «لو تقدمت إلى الصغد(٣) وما وراء ذلك. قال: ليت حظي من هذه الغزوة سلامة هذه الجند. وعودتهم إلى مرو سالمين»(٤).

وتظهر براعة المهلب السياسية في احتفاظه بعلاقات قوية مع الخليفة الأموي في دمشق، والتعامل بدهاء مع الحجاج الذي كان يضمر في نفسه الكثير ضد آل المهلب لذلك كانت سياسة المهلب في خراسان تتسم بالحذر من العناصر القبلية المناوئة من عرب الشمال على وجه التحديد، ورغم انتمائه إلى عرب الجنوب فلم يترك لنفسه العنان في الانسياق وراء التعصب القبلي، بل كان يسعى إلى إقامة توازن في العلاقات بين القبائل حتى لا تثور فتنة تؤدي إلى افشال مشاريعه الحربية، وفي نفس الوقت كان على حذر من المضربة ولا يأمن جانبهم، ويتضح ذلك عندما أقبلت عليه جماعة من مضر وهو بمدينة كش، فقبض عليهم وحبسهم، ورغم أن المصادر لم تذكر سبباً لهذا

(١) الكامل، ج ٤، ص ٤٥٣.
(٢) النويري، ج ٢١، ص ٢٠١.
(٣) الصغد: كورة بين بخارى وسمرقند تشمل قرى متصله خلال الاشجار والبساتين والصغد اسم الوادى والنهر الذى تشرب منه هذه النواحى وقيل هما صغدان. صغد سمرقند، وصغد بخارى (معجم، ج ٣، ص ٤٠٩، آثار البلاد، ص ٥٤٣).
(٤) الطبري، ج ٦، ص ٣٢٦.

Scanned by CamScanner

التصرف، فمن المحتمل أنهم كانوا يمثلون خطراً على وحدة جيشه في ذلك الوقت وهو يواجه العدو في حروب متصلة، فقد ثارت بعض المنازعات بين بطون من بني تميم طلباً للثأر(١). وعندما زال الخطر، وعاد المهلب إلى مرو عاصمة خراسان، لم يجد سبباً لبقاء هؤلاء في حبسه فأطلق سراحهم(٢)، ويؤيد هذا الاحتمال، الحجاج كتب إلى المهلب بشأن هؤلاء المضرية: «إن كنت أصبت بحبسهم فقد أخطأت بإطلاقهم، وإن كنت أصبت بإطلاقهم فقد ظلمتهم إذ حبستهم، فكتب المهلب: خفتهم فحبستهم، فلما أمنت خليتهم»(٣).

ولعل عدم توتر العلاقات بنى المهلب والحجاج بصورة سافرة ترجع إلى أن المهلب بالإضافة إلى حسن سياسته، لم يكن في طبعه الغدر ومكث العهود، في الوقت الذي عرف فيه عن الحجاج القسوة والعنف في علاقته مع الخاصة والعامة على السواء، وحادثة ثورة عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث في سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م تلقي الضوء على بعض جوانب شخصية الرجلين: أعني المهلب والحجاج.

فثورة ابن الأشعث في جوهرها تمرد من جانب قائدها ورجاله ضد قسوة الحجاج وصلفه وغروره، ورغبته في الانتقام منه، وبدأت بتدخل الحجاج في الحرب التى يقودها ابن الأشعث ضد «رتبيل» أحد ملوك الترك والذي سبق له أن أوقع الهزائم المتكررة بجيوش المسلمين، وكان رأى ابن الأشعث - بعد أن حقق بعض الانتصارات على «رتبيل» واستولى على أجزاء من بلاده -

(١) راجع التفاصيل: النويري، ج ٢١، ص ٢٢٩ – ٢٣٢.
(٢) الطبري، ج ٦ ، ص ٣٢٦.
(٣) الكامل، ج ٤ ، ص ٢٥٤.

عدم التدخل فى بلاد الترك خوفاً من الوقع في الكمائن «حتى يعرفوا طرقها ويجربوا خراجها»(١)، ولكن الحجاج اتبع مع ابن الأشعث نفس الطريقة التي سبق له أن نفذها مع المهلب في حربه ضد الأزارقة، فطارد ابن الأشعث بسلسلة من الكتب العنيفة التي تتهمه بالجبن وحب المودعة والرغبة في جباية الأموال، وأمره بمواصلة القتال ضد الترك أو التخلي عن الإمارة لأخيه إسحق(٢)، وكان رد فعل ابن الأشعث حاسماً إذ أعلن الثورة على الحجاج والدولة الأموية واستجاب له الأجناد ومعظمهم من أهل البصرة والكوفة نكاية في الحجاج لبغضهم له وخوفهم من سطوته(٣).

وفي هذا الوقت حاول ابن الأشعث أن يستميل إليه المهلب بن أبي صفرة والي خراسان، ولكن المهلب رفض الاستجابة للفتنة، وكتب إلى ابن الأشعث كتاباً يوضح سياسته ومنهجه في التعامل مع السلطة الشرعية، وجاء في كتابه «أما بعد، فإنك وضعت رجلك يا بن محمد في غرز طويل الغي على أمة محمد ﷺ. الله الله فانظر لنفسك لا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها..»(٤).

وواضح من النص السابق التزام المهلب بالوفاء وعدم نكث العهود، والبعد عن الفتنة وما تجره من ويلات وسفك دماء المسلمين، ولم يكتف المهلب بنصح ابن الأشعث، بل أرسل كتاباً إلى الحجاج يحذره من خطر الفتنة الداهمة التى ستهب عليه، وينصحه أن يتخذ موقف الدفاع ضد ثورة ابن الأشعث ولا يخرج للقائه، وحلل له طبيعة أهل العراق في الحرب فقد

(١) راجع تفاصيل ثورة ابن الأشعث وحروبه مع الترك: النويري، ج ٢١ ، ص ٢٣٣ وما بعدها.
(٢) النويري ، نهاية الآرب ، ص ٢٣٥.
(٣) المسعودي ، التنبيه والاشراف، ص ٢٨٧.
(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٣٣٨.

Scanned by CamScanner

خبرهم طويلاً وقال في كتابه للحجاج «إن لأهل العراق شره في أول مخرجهم،وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم ويشموا أولادهم، ثم واقفهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم إن شاء الله»(١).

لم يأخذ الحجاج بنصيحة المهلب وتجهز للقاء جيش ابن الأشعث الزاحف على العراق وخرج الحجاج من البصرة حتى وصل تستر (مدينة بخوزستان)(٢) وهناك اصطدم مع ابن الأشعث في معركة عنيفة في يوم الأضحى سنة ٨١هـ/ ٧٠٠م، فانهم أصحاب الحجاج وقُتل منهم جمع كثير، واضطر الحجاج إلى الانسحاب بفلوله إلى البصرة، وابن الأشعث يطارده(٣). وهنا أدرك الحجاج قيمة النصيحة التي أسداها له المهلب، فلما وصل البصرة، طلب كتاب المهلب وأعاد قراءته وتفحص فحواه ثم قال لمن حوله: «لله أبوه، أي صاحب حرب هو. أشار علينا بالرأي ولكنا لم نقبل»(٤).

ونُكب المهلب في رجب سنة ٨٢هـ/ ٧٠١م بوفاة ابنه المغيرة، فحزن عليه حزناً شديداً، وكان المغيرة نائباً عن أبيه في مرو، فلما بلغه خبر وفاته وهو مقيم بكش أرسل ابنه يزيد إلى مرو ليتولى مراسم دفن أخيه، وجعل يوصيه بما يفعل ودموعه تنحدر على لحيته(٥)، وبعد أن نظم الأوضاع في

(١) الطبري، ج ٦، ص ٣٣٩، ابن خلدون، م ٣، ص ١٠٧.

(٢) خوزستان: اسم لجميع بلاد الخوز، وهي الأهواز وقيل إحدى نواحيها، بين فارس وواسط والبصرة وجبال اللوز المجاورة لأصبهان (معجم البلدان، ج ٢، ص ٤٠٤، مراصد الاطلاع، ج ١، ص ٤٩٠).

(٣) النويري، ج ٢١، ص ٣٣٦.

(٤) الطبري، ج ٦، ص ٣٤٠.

(٥) نفسه ص ٣٥١، ورثا الشعراء المغيرة ومنهم أبو أمامة زياد الأعجم الذي جاء في قصيدته:

تبكي المغيرة خلينا ورماحنا * والباكيات برنة وتصايح
كان المهلب بالمغيرة كالذي ألقى الدلاء إلى قليب المانح

راجع: (وفيات، ج ٥، ص ٣٥٤).

تكن، تركها متوجهاً إلى مرو وفي طريقة أصيب المهلب بمرض شعر معه بدنو أجله، فجمع أولاده، وأعلن استخلافه لابنه يزيد عليهم، وأمرهم بعدم مخالفته، فقال له ابنه المفضل: لو لم تقدمه لقدمناه «وأحضر سهاماً فجُزمت، وقال: أتكسرونها مجتمعة؟ قالوا: نعم، قال: فهكذا الجماعة»(١).

وأوصى المهلب أبناءه قُبيل وفاته وصية أوردتها معظم مصادر التاريخ ولأهمية هذه الوصية كأحد الوثائق التي تكشف عن شخصية زعيم آل المهلب، والسياسة التي اعتنقها في حياته والتي يرغب من أبنائه أن يسلكوا سبيلها من بعده، فقد أوردنا نص الطبري لهذه الوصية: «فأوصيكم بتقوى الله وصلة الرحم، فإن صلة الرحم تنسئ في الأجل، وتثري المال، وتكثر العدد وأنهاكم عن القطيعة، فإن القطيعة تعقب النار، وتورث الذلة والقلة، فتحابّوا وتواصلوا، وأجمعوا أمركم ولا تختلفوا، .. وعليكم بالطاعة والجماعة، وليكن فعالكم أفضل من قولكم، .. واتقوا الجواب وزلة اللسان، فإن الرجل تزل قدمه فينتعش من زلته، ويزل لسانه فيهلك اعرفوا لمن يغشاكم حقه، وآثروا الجود على البخل، عليكم في الحرب بالأناة والمكيدة، فإنها أنفع في الحرب من الشجاعة. وعليكم بقراءة القرآن، وتعليم ا لسنن، وأد ب الصالحين، وإياكم والخفة وكثرة الكلام في مجالسكم، وقد استخلفت عليكم يزيد، وجعلت حبيباً على الجند حتى يقدم بهم على يزيد، فلا تخالفوا يزيداً»(٢)، وتُوُفِّيَ المهلب بمرو الروذ، ودُفن فيها، وصلى عليه ابنه حبيب وكانت وفاته في ذي الحجة سنة ٨٢هـ/ ٧٠١م(٣).

(١) الكامل، ج ٤، ص ٤٧٥.

(٢) الطبري، ج ٦، ص ٣٥٤.

(٣) ابن أعثم، م ٤، ص ٨٩، فرثاه الشاعر نهار بن توسعة التميمي بقصيدة مطلعها:

لا ذهب الغزو المقرب للغنى * ومات الندى والجود بعد المهلب

Scanned by CamScanner

الفصل الخامس

أسرة المهالبة بقيادة يزيد
حتي وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز
(١٠١هـ/٧١٩م)

Scanned by CamScanner

الفصل الخامس

أسرة المهالبة بقيادة يزيد حتي وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز (١٠١هـ/٧١٩م)

بعد وفاة المهلب، كتب ابنه يزيد إلى الحجاج يُعْلِمه بوفاته. فأقره الحجاج على خراسان مكان أبيه[١]، وكان المهلب قد قال لمن حضره من أولاده قُبيل وفاته - كما ذكرنا - قد استخلفت عليكم يزيداً فلا تخالفوه، واعتقد أن هذا الاستخلاف لا يعني استخلافاً على خراسان فقط، فهذا يتوقف على موافقة الخليفة والحجاج، بل هو استخلاف على آل المهلب، فأصبح يزيد بهذا الاستخلاف كبير آل المهلب وشيخهم، ولذلك لا أميل إلى الأخذ برواية للطبري - بدون سند على غير عادته - يقول فيها: «ويقال: إنه قال عند موته ووصيته (يقصد المهلب): لو كان الأمر إليّ لوليت سيد ولدي حبيباً»[٢]. ولنا أن نتساءل: هل كان المهلب في استخلافه لابنه يزيد مكرهاً؟ وإذا لم يكن الأمر إليه في هذا الاختيار. فلمن كان إذن؟ ولا شك أن هذه الرواية - إن صحت - تتناقض مع وصية المهلب لأبنائه عن أهمية الجماعة وعدم الاختلاف وأن يطيعوا يزيداً، فما كان المهلب يبذر بذور الشقاق بين أبنائه قُبيل وفاته بمثل هذه العبارة.

وفي سنة ٨٣هـ/٧٠٢م كان الحجاج بن يوسف الثقفي مازال على حرب ابن الأشعث، وكانت أهم المعارك التي خاضها في هذه السنة معركة «دير الجماجم» المشهورة بالقرب من الكوفة، والتي انكسر فيها جيش ابن الأشعث وتشتت شمل أصحابه[٣] ويهمنا من أمر هذه المعركة أن فريقاً من جيش ابن ا لأشعث بعد أن انتهى بهم المطاف إلى سجستان، طلبوا أن يتركوا سجستان ويتوجهوا بجيوشهم إلى خراسان وعليها يزيد بن المهلب ليستولوا عليها

---

(١) راجع الطبري، ج ٦، ص ٣٥٥.
(٢) طبري، نفسه.
(٣) راجع التفاصيل: النويري، ج ٢١، ص ٢٣٩ وما بعدها.

Scanned by CamScanner

ويتقووا بها. ولكن ابن الأشعث حذرهم من هذه المغامرة، وقال لهم: «على خراسان يزيد بن المهلب، وهو شاب شجاع صارم وليس بتارك لكم سلطانه، ولو دخلناها لوقعنا بين أهل خراسان وأهل الشام»[1]، ولكن أصحابه لم يستجيبوا له. وكانوا يأملون أنهم إذا هاجموا خراسان فسيجدون تأييداً من أهلها، وأنها خير مستقر لهم بعيداً عن تهديد الحجاج والدولة الأموية[2].

استجاب ابن الأشعث لرغبة أصحابه بعد إلحاح، وسار بهم في اتجاه خراسان وعندما وصلوا مدينة «هراة» حدث اضطراب في صفوف قواته أظهر اختلافها فيما بينها، انسحب جزء من جيشه بقيادة عبيد الله بن عبد الرحمن في ألفين، مما أغضب ابن الأشعث، فترك قيادة أصحابه وانسحب بخاصته من المعركة[3].

تجمع من بقي من جيش ابن الأشعث في هراة بقيادة عبد الرحمن بن العباس بن ربيعة في حوالي عشرين ألفاً، وبلغ خبر هذا الحشد يزيد بن المهلب في خراسان، وما فعلوه بنائبه على هراة «الرقاد بن عبيد» عندما أراد التصدي لهم فقتلوه. فأرسل يزيد تحذيراً إلى عبد الرحمن جاء فيه: «قد كان لك في البلاد متسع، ومن هو أقل مني حداً وأهون شوكة، فارتحل إلى بلد ليس لي فيه سلطان، فإني أكره قتالك، وإن أحببت أن أمدك بمال لسفرك أعنتك به»[4].

(١) الطبري، ج ٦، ص ٣٧٠.
(٢) الدينوري، ج ٢١، ص ٢٥٠.
(٣) الطبري، ج ٦، ص ٣٧٠، ويقال أن ابن الأشعث عند انسحابه عاد للإقامة مع رتبيل ملك الترك الذي كان قد توكدت بينهما الصداقة منذ رفض ابن الأشعث الدخول في حرب ضد رتبيل، ووجه جيوشه لقتال الحجاج (راجع: الطبري، ج ٦، ص ٣٧٠ – ٣٧١، المسعودي، التنبيه والاشراف، ص ٢٨٧).
(٤) الدينوري: ج ٢١، ص ٢٥١.

ونعل عبد الرحمن بن العباس ليزيد بأنه ما نزل هذه البلاد لحرب أو مقام، ولكن للراحة ثم الرحيل، وكان يزيد يراقب ما يجري في هراة بحذر كعادة آل المهلب في حروبهم، فبلغه أن عبد الرحمن أقبل على جباية ما تحت يده، فأدرك يزيد أن من أراد أن يريح ثم يرحل لم يجب الخراج[1] فتحرك يزيد برجاله في اتجاه هراة وولى على الحرب أخاه المفضل، واستخلف على مرو عاصمة خراسان خاله جديع بن يزيد، وعندما وصل هراة، بعث تحذيراً ثانياً إلى عبد الرحمن بن العباس جاء فيه: إنك قد أرحت وسمنت وجبيت الخراج فلك ما جبيت وزيادة، فاخرج عني فإني أكره قتالك[2]. ولكن عبد الرحمن بن العباس لم يستجب لنداء المسالمة، وكاتب جند يزيد يستميلهم ويدعوهم إلى نفسه، فأخبروا يزيد بذلك، فعلم أنه لا فائدة من العتاب، وأمر أخاه المفضل بالاشتباك، ودارت معركة قصيرة انهزم فيها جيش عبد الرحمن وفر معظم أصحابه من ميدان المعركة، فأمر يزيد بن المهلب بالكف عنهم وعدم مطاردتهم، ووقع منهم عدد كبير في الأسر، وكان من بين الأسرى محمد بن سعد بن أبي وقاص الذي قال ليزيد عندما مثل بين يديه: أسألك بدعوة أبي لأبيك، فخلى يزيد سبيله[3].

ويروى أن حبيب بن المهلب حرض أخاه يزيد على عدم إرسال الأسرى في هذه المعركة من أهل اليمن إلى العراق، لأن الحجاج سيضرب أعناقهم. وقال له: بأي وجه تنظر إلى اليمانية إذا فعلت ذلك، ورغم أن

(١) الطبري: ج ٦، ص ٣٧١.
(٢) الدينوري، ج ٢١، ص ٢٥٢.
(٣) وكان سعد بن أبي وقاص عندما بلغه حسن بلاء المهلب في معارك خراسان في عهد معاوية قال: اللهم لا ترِه ذلاً أبداً، وأكثر ماله، ويقال إن ما نال المهلب من خير كان بسبب هذه الدعوة. (راجع: المعارف، ص ٢٤٢، الأنساب، ص ١٢٨ – ١٢٩).

Scanned by CamScanner

يزيد كان يعلم خطورة التعرض للحجاج في مثل هذا الأمر، إلا أنه خضع لرأي حبيب وأنف أن يرد أسرى اليمانية إلى الحجاج، وأما المضرية فشدهم في الحديد ووجههم إلى الحجاج[1].

ويروي الطبري أن الحجاج عندما جاءه الأسرى من عند يزيد بن المهلب، حاكمهم في مجلسه، واحداً بعد الآخر، وكان بعد المحاكمة يأمر بضرب عنق الأسير، ثم أُتِيَ بعبد الله بن عامر، فلما قدم بين يديه قال: لا رأت عيناك ياحجاج الجنة إن أقلت ابن المهلب بما صنع. قال: وما صنع؟ قال:

لأنه كـــاس في إطلاق أســـرته * وقاد نحوك في أغلالها مضراً
وقى بقـــومك ورد الموت أســـرته وكـــأن قـــومك أدنى عنده خطراً

فأطرق الحجاج ملياً، ووقرت في قلبه، قال: ما أنت وذاك. وأمر بضرب عنقه، ولم تزل في نفس الحجاج حتى عزل يزيد عن خرسان وحبسه[2].

عزل يزيد بن المهلب عن خراسان سنة ٨٥هـ/٧٠٤م

بعد أن فـرغ الحجاج من ثورة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سنة ٨٥هـ/٧٠٤م رتب للقضـــاء على يزيـــد بن المهـــلب وعـــزله عن خراسان، وأصبح لا هم له إلا يزيد وأهل بيته، «وقد كان الحجاج أذلّ أهل العراق كلهم إلا يزيد وأهل بيته ومن معهم من أهل المصرين بخراسان، ولم يكن يتخوف بعد عبد الرحمن بن محمد بالعـراق غير يزيد بن المهلب»[3]. والظاهـر أن الحـجـاج كـان يـرى في يزيد بن المهلب، أكـبـر منافس له لـدى الخلافـة

(١) اللويري، ج ٢١، ص ٢٥٣.
(٢) الطبري، ج ٦، ص ٣٨٠، قارن: اللويري، ج ٢١، ص ٢٥٤.
(٣) الطبري، ج ٦، ص ٣٩٧.

الأموية في دمشق، وأنه يمكنه أن يحل مكانه ويتولى ما تحت يده من أعمال، وحسب رواية ابن خلكان أن «الحجاج يكره يزيد لما يرى فيه من النجابة فيخشى منه أن يترتب مكانه، فكان يقصده بالمكروه كل وقت كي لا يلب عليه»[1]. ولما كان أهم ما يشغل بال الحجاج في ذلك الوقت هو يزيد ابن المهلب، فكان الحجاج كثيراً ما يسأل المنجمين عمن يكون مكانه، فيقولون رجلاً اسمه يزيد، فلا يرى من هو أهل لذلك سوى يزيد بن المهلب[2].

ورغم ما كان يتمتع الحجاج من مكانة لدى الخليفة عبد الملك بن مروان الذي أطلق يده في شئون العراق والمشرق، إلا أن الحجاج كان يشعر بأن يزيد بن المهلب يحظى باحترام وتقدير البلاط الأموي في دمشق، وأراد الحجاج أن يختبر مكانته لدى عبد الملك فطلب منه أن يعفيه مما تحت يده من ولايات، فأدرك عبد الملك هدفه، ولم يجبه إلى طلبه[3].

وتذكر الروايات التاريخية أن الحجاج كان يبحث عن سبب لإقناع عبد الملك بن مروان بعزل يزيد عن خراسان، فأكثر من الكتابة إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ويتهمهم بأنهم زبيرية[4]، ومع علم عبد الملك بأن هذه تهمة لا قيمة لها الآن بعدما حققه آل المهلب من انتصارات ضد أعداء الدولة الأموية، إلا أن إلحاح الحجاج دفع الخليفة إلى أن يكتب إليه: «قد أكثرت في يزيد وآل المهلب، فسم لي رجلاً يصلح لخرسان، فسمى له مجاعة بن سعد السعدي، فكتب إليه عبد الملك: إن رأيك الذي دعاك إلى استفساد آل

(١) وفيات، ج ٦، ص ٢٧٨.
(٢) نفسه، ص ٢٨٨ – ٢٨٩، اللويري، ج ٢١، ص ٢٦٤.
(٣) وفيات، ج ٦، ص ٢٨٩.
(٤) الطبري، ج ٦، ص ٣٩٥.

Scanned by CamScanner

المهلب، هو الذى دعاك إلى اختيار مجاعة، فانظر لي رجلاً حازماً ماضياً لأمرك، فسمى له قتيبة بن مسلم، فكتب إليه: ولّه.[1]

ونستنتج مما سبق أن عبد الملك كان يدرك حقيقة مشاعر الحجاج وحقده على يزيد وآل المهلب، وأنه كان يرمي إلى «استفساد آل المهلب، ورغم ذلك فقد استجاب الخليفة لطلب الحجاج وعزل يزيد عن خراسان بقتيبة بن مسلم في ربيع الآخر سنة ٨٥هـ/٧٠٤م، وكان هذا في اعتقادي منعاً لاحتمالات الفتنة والصدام بين يزيد والحجاج مما ينذر بسوء العاقبة، وكان الحجاج حريصاً في نفس الوقت أن يتم عزل يزيد عن خراسان وقدومه إلى العراق بطريقة لا تثير مشاعره، ولا تدفعه إلى الثورة والتمرد، فلم يكتب الحجاج إليه بالعزل بل كتب له باستخلاف أخيه المفضل وأن يقبل عليه بالعراق[2].

وكان يزيد بن المهلب على علم بما يدبره له الحجاج، ورغم نصيحة مستشاريه له بأن يتريث في الخروج إلى العراق على أمل أن عبد الملك يعدل عن عزله، إلا أن يزيد كان محافظاً على التقاليد التي بثها فيه والده المهلب، وقال لمن حوله: «إنا أهل بيت بورك لنا في الطاعة، وأنا أكره المعصية والخلاف»[3].

وهناك رواية تشير إلى أن يزيد في أواخر أيامه في خراسان تغير على بني عمه وغيرهم من أجناد خراسان، فجعل يبغضهم ولا ينفذ فيهم وصية أبيه

(١) وفيات، ج ٦، ص ٢٨٩.
(٢) الطبري، ج ٦، ص ٣٩٥.
(٣) نفسه.

حتى أبغضه أهل خراسان وكاتبوا الحجاج[1]، وأنا لا أميل إلى هذه الرواية لتبرير عزل يزيد، فالحجاج ما كان يشغله علاقة يزيد بأهل خراسان ورأيهم فيه، بقدر ما كانت تشغله أمور أخرى سبق ايضاحها، ومما يدحض هذه الرواية، ما ترويه معظم المصادر أنه عندما خرج يزيد من خراسان إلى العراق صادف ترحيباً كبيراً في كل مكان «فلم يمر ببلد إلا فرشوا له الرياحين»[2].

حبس الحجاج يزيد بن المهلب ومعظم أفراد أسرته بعد وصولهم إلى العراق وأخذهم بسوء العذاب وأغرمهم ستة ملايين درهم[3]، وظل يزيد في سجن الحجاج حتى سنة ٩٠هـ/٧٠٨م حيث تمكن يزيد ومن معه من إخوته من الهرب من قبضة الحجاج. وتفاصيل ذلك أن الحجاج كان قد خرج لحرب الأكراد الذين غلبوا على فارس، وأخرج معه يزيد بن المهلب وإخوته، فجعلهم في عسكره، وجعل عليهم مثل الخندق ووضع عليهم حرساً من أهل الشام[4]، وواضح من هذا التصرف من جانب الحجاج، أنه كان يدرك خطر يزيد وآل المهلب رغم وجودهم في قبضته، فكان يخشى هربهم ولم يأمن أن يتركهم، ويخرج للغزو مما قد يعطى الفرصة لبعض العناصر المؤيدة لآل المهلب من التدخل لإطلاق سراحهم.

وكان يزيد رغم وجوده في الحبس على اتصال بأسرته في البصرة، فبعث إلى أخيه مروان بن المهلب يخبره بعزمه على الهرب، ويطلب منه أن يعد خيولاً قوية تحسباً لوقت قد يستطيع فيه الإفلات من قبضة

(١) ابن أعثم، م ٤، ص ١٤٥ وما بعدها.
(٢) الطبري، ج ٦، ص ٣٩٦، النويري، ج ٢١، ص ٢٦٥.
(٣) وفيات، ج ٦، ص ٢٨٨ – ٢٨٩.
(٤) طبري، ج ٦، ص ٤٨٨، نويري، ج ٢١، ص ٣١٦.

Scanned by CamScanner

الحجاج[1]، ويفهم من الروايات التي بين أيدينا أن الحجاج في هذه الفترة كان قد كف عن تعذيبهم، واكتفى بأن يستصفي أملاكهم ويخرج منها ما يستطيع إخراجه من أموال، تسديداً لما أخذهم به، وكان قد غرمهم ستة ملايين درهم – كما ذكرنا – وتروى المصادر ما يفيد أن يزيد كان يعامل معاملة خاصة آذاك، وكان ينفق عن سعة وهو في الحبس ،وكان له طباخ وموائد منصوبة حتى استمال قلوب الحراس،[2]، ولذلك كان يمكن ليزيد أن يدبر خدعة يهرب بها من حبسه، وأمر يزيد أن يصنع طعام كثير للحرس وأن يقدم لهم الشراب، واستغل انشغالهم فتنكر في ثياب طباخه، ووضع لحية بيضاء وتسلل من بين الحراس ليلاً وتبعه أخواه المفضل وعبد الملك[3]، ومن المحتمل أن يزيد قد دبر هذا الأمر بالاتفاق مع بعض الحراس الذين غمرهم بكرمه، وأعطى السجان ألف درهم لتسهيل مهمة هربه[4].

ولما وصل الخبر إلى الحجاج بهرب يزيد وأخوته ظن أنهم سيتوجهون إلى خراسان ويجمعون أنصارهم هناك، ويثيرون فتنة ضده، فأرسل إلى واليها قتيبة بن مسلم يأمره بالحذر والاحتياط، فكان الحجاج يخشى أن يحدث له من يزيد مثل ما فعل ابن الأشعث[5] ولكن يزيد ومن معه من آل المهلب، كانوا يفكرو في اتجاه آخر، حيث أخذوا طريقهم إلى فلسطين ونزلوا على أحد أفراد قبيلتهم وهو يزيد بن عبد الرحمن الأزدي الذي توسط ليزيد بن المهلب لدى سليمان بن عبد الملك بن مروان وكان مقيماً في فلسطين في ذلك

(١) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ١٥٥.
(٢) النويري، ج ٢١ ، ص ٣١٧.
(٣) طبري ، ج ٦ ، ص ٤٤٨ – ٤٤٩.
(٤) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ١٥٤.
(٥) طبري ، ج ٦ ، ص ٤٤٩.

الوقت، فأمّنهم سليمان، وكان لابد أن يحصل لهم على الأمان من أخيه الخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦هـ/٧٠٥–٧١٤م) فكتب إليه بذلك، وطلب منه الخليفة أن يمثل يزيد وأخوته أولاً بين يديه قبل الأمان، ولما خاف عليهم سليمان من بطش الخليفة أخبره أنه سيحضر بهم بنفسه، ولكن الوليد أقسم أنه لن يعطيهم الأمان إلا إذا حضروا بدونه ومقيدين[1].

ويظهر أن سليمان بن عبد الملك لم ينس بلاء آل المهلب وشهرتهم التي ذاعت في الآفاق وجهادهم وولاءهم للدولة الأموية، لذلك أرسل مع يزيد وأخوته ابنه أيوب، وطلب منه مأن يدخل إلى الوليد وهو مقيد في قيد واحد مع يزيد بن المهلب، ووجه سليمان كتاباً إلى أخيه يبرر فيه أسباب إجارته ليزيد جاء فيه: «إنما أجرت يزيد بن المهلب لأنه وأباه وأخوته من صنائعنا قديماً وحديثاً، فلم أجر إلا سامعاً مطيعاً حسن البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته»[2] وتعهد سليمان بأن يرد عن يزيد كل ما يطلب منه من أموال[3]. فأمّن الوليد بن عبد الملك يزيد وآل المهلب، وكتب إلى الحجاج بأن يكف يده عنهم، فاستجاب الحجاج لأوامر الخليفة، وكان أبو عيينة بن المهلب عند الحجاج وقد أغرمه مالاً فكف عنه، وأطلق سراح حبيب ابن المهلب وكان يُعذب بالبصرة[4]. وأقام يزيد بن المهلب عند سليمان بن عبد الملك وكانت الصداقة بين الرجلين تزداد قوة مع الوقت وكان سليمان يحسن استقباله، ويقدم له الهدايا القيمة ويقبلها منه، ولم يتمكن الوشاة من

(١) طبري ، ج ٦، ص ٤٥١.
(٢) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ١٥٨.
(٣) طبري ، ج ٦ ، ص ٤٥٢.
(٤) وفيات ، ج ٦ ، ص ٢٩٤.

Scanned by CamScanner

إفساد هذه العلاقة القوية بينهما[1] وظل الحال على ذلك حتى وفاة الوليد ابن عبد الملك وتولي سليمان الخلافة سنة ٩٦هـ/٧١٤م.

** ** **

ارتفاع شأن آل المهلب في عهد سليمان بن عبد الملك

كان من المتوقع أن يحظى آل المهلب وعلى رأسهم يزيد بمكانة مرموقة ونفوذ قوي في ظل حكم الخليفة الجديد سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٤-٧١٧م) الذي ما كاد يتولى الخلافة حتى دعا يزيد ابن المهلب، فخلع عليه وأكرمه، وعزم على أن يوليه العراقين البصرة والكوفة[1]، وفي نفس الوقت فإن أعداء آل المهلب وخاصة هؤلاء الذين كانوا من أنصار الحجاج (توفي ٩٥هـ/٧١٣م)، الذين سبق وشاركوا في بعض ما أصاب آل المهلب على يديه، أصبحوا يتوجسون من العهد الجديد، وتوقعوا أن يتم تصفية الحسابات القديمة، وأن يتعرضوا للانتقام، فيذكر الرواة، أن الخلافة عندما آلت إلى سليمان بن عبد الملك، خشي قتيبة بن مسلم أن يعيد سليمان يزيد بن المهلب على خراسان ويعزله عنها بما يعنيه هذا من تعرضه وأنصاره لانتقام يزيد، فكتب قتيبة إلى سليمان ثلاثة كتب أرسلها مع رسول له: الكتاب الأول يهنئه فيه بالخلافة، ويذكر حسن بلائه وطاعته لعبد الملك والوليد، وأنه له عليه مثل هذا إن لم يعزله عن خراسان. فقتيبة في كتابه الأول للخليفة يربط بين ولائه له وبين بقائه والياً على خراسان.فقتيبة في كتابه الأول للخليفة يربط بين ولائه له وبين بقائه والياً على خراسان محتمياً فيها مما يتوقعه من أخطار. والكتاب الثاني يذكّر فيه الخليفة بفتوحه وجهاده ومكانته

(١) راجع التفاصيل ، الطبري ، ج ٦، ص ٤٥٢ – ٤٥٣.
(٢) ابن أعثم ، م ٤، ص ١٨٧.

وعظم قدره، «وبذلك آل المهلب ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه» أما الكتاب الثالث فكان فيه خلع للخليفة وإعلان التمرد[1].

وبعث قتيبة الكتب مع أحد خاصته، وأوصاه أن يدفع الكتاب الأول إلى الخليفة، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً مجلسه فقرأه ثم ألقاه إليه فادفع إليه بالكتاب الثاني، فإن قرأه ودفعه إلى يزيد فادفع إليه الثالث. وإن قرأ الأول ولم يدفعه إلى يزيد فاحبس الكتابين عنه، وقد حدث ما توقعه قتيبة أولاً، فكلما أعطاه مبعوثه كتاباً دفعه الخليفة إلى يزيد حتى أعطاه الكتاب الثالث فقرأ سليمان: «لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمنني لأخلعنك ولأملأنها عليك خيلاً ورجلاً»[2].

ولم ينتظر قتيبة بن مسلم رد الخليفة على كتبه، واستشار أخوه فأشاروا عليه بخلع سليمان بن عبد الملك، فلما فعل ذلك ودعا القبائل التي في خراسان إلى مساندته في خلع سليمان لم يستجيبوا له، فوقف قتيبة فيهم خطيباً فأساء إليهم وسبهم، فغضبت القبائل واجتمعوا على خلع قتيبة والتصدي له «وكان أول من تكلم في ذلك الأزد»[3] وكان طبيعياً أن ينقسم الأزد على قتيبة لموقفه من آل المهلب وعدائه لهم[4] وانتهى الأمر بثورة القبائل في خراسان على قتيبة، وقُتل هو ومعظم أفراد أسرته وبُعث برأسه إلى سليمان بن عبد الملك[5].

(١) النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٣٩.
(٢) راجع التفاصيل : الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٠٧ – ٥١١.
(٣) النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٤٠.
(٤) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٩٥.
(٥) راجع التفاصيل: تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ، ص ٢٩٥-٢٩٦ ، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ، ص ٣٤٠-٣٤٢.

Scanned by CamScanner

وكان سليمان بن عبد الملك بعد توليه الخلافة مباشرة قد أسند ولاية العراق إلى يزيد بن المهلب، وأمره أن يبسط العذاب على آل أبي عقيل وهم أهل الحجاج، فأسند يزيد مهمة الانتقام منهم ومصادرة أملاكهم إلى أخيه عبد الملك [1]، ورغم أن سليمان قد أطلق يد يزيد بن المهلب في أهل الحجاج وخواصه، إلا أن يزيد لم يكن يحمل طباع الحجاج ولا أخلاقه، وكان أقرب إلى العفو منه إلى الانتقام والتشفي ويظهر هذا واضحاً في موقفه من يزيد بن أبي مسلم خليفة الحجاج وأحد خواصه، وكان سليمان قد قبض عليه، وقال ليزيد ابن المهلب «خذه إليك فعذبه بألوان العذاب، حتى تستخرج منه الأموال. فقال: يا أمير المؤمنين أنا أعلم به، لا والله ما عنده مال، ولا كان ممن يحوي المال. وكان يزيد بن المهلب يعرف له جميل فعله به، فولاه سليمان الصائفة،[2].

وفي سنة ٩٧هـ/٧١٥م استعمل سليمان بن عبد الملك، يزيد بن المهلب على خراسان مضافة إلى العراق، فولى يزيد أخاه زياداً على عُمان[3].

وكان سبب ذلك أن سليمان لما ولي يزيد العراق فوّض إليه الحرب والخراج والصلاة بها، أي أصبحت ولاية عامة ليزيد، فنظر يزيد لأحوال العراق وما آلت إليه بعد أن خربها الحجاج، وضيّق على أهلها، واستنزف أموالهم، ورأى أنه إن تشدد في جمع الخراج وعذب الناس لجمع منهم صار عندهم مثل الحجاج، لذلك احتال يزيد لدى الخليفة حتى يسند إليه ولاية خراسان وكأن الأمر قد جاء عفواً ودون تدبير أو رغبة من يزيد[4].

(١) النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٤٣.
(٢) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٩٥.
(٣) الطبري ، ج ٦، ص ٥٠٦، الأنساب ، ج ٢، ص ١٤٨.
(٤) راجع التفاصيل: الكامل، ج ٥ ، ص ٢٣، النويري، ج ٢١، ص ٣٤٤ وما بعدها.

ويتضح من رواية لابن الأثير أن يزيداً انشغل عن الخراج، فأسندت مهمة الخراج إلى صالح بن عبد الرحمن، فضيق صالح على يزيد في الأموال حتى ضجر من البقاء في العراق وكان يزيد مشهوراً بالكرم إلى حد الإسراف فقد اتخذ ألف خوان يطعم الناس عليها فمنعها صالح .. واشترى يزيد متاعاً وكتب صكاً بثمنه إلى صالح فلم يقبله، وادعى بأن الخراج لا يقوم بما يريد يزيد[1].

وأعتقد أن الفرصة في العراق كانت ضيقة أمام طموحات يزيد وآل المهلب، فمجال الغزو والفتوحات ليست متاحة ليزيد في العراق، ولعل هذا هو ما دفع يزيد إلى السعى لتولي خراسان تلك الولاية التي خبرها آل المهلب طويلاً في صراعهم مع الأزارقة وفي كفاحهم في سبيل الجهاد ونشر الإسلام، فالغزو هو الطريق الذي اعتاده آل المهلب للحصول على الشهرة والمغانم، فمعن طريق الغزو يمكن تحقيق المكانة العالية المرموقة، والثروات الطائلة التي تخضع الرقاب وتجمع الأنصار.

خرج يزيد بن المهلب إلى خراسان سنة ٩٧هـ/٧١٥م وكان قد سبقه إليها ابنه مخلد واستخلف الولاة على مدن العراق، وجعل أخاه مروان على حوائجه وشئونه بالبصرة[2] لما للبصرة من مكانة خاصة لدى آل المهلب.

وسعى يزيد بن المهلب بعد توليه خراسان في تحقيق ما كان يصبو إليه من أهداف، فبعد أن قبض على زمام الأمور في ولايته، قضى على الثورات في جرجان وطبرستان، وحارب الترك والديلم، واستعان بآل المهلب في الإدارة

(١) الكامل ، ج ٥ ، ص ٢٣ – ٢٤.
(٢) النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٤٦.

Scanned by CamScanner

والقيادة، فولى ابنه مخلداً سمرقند، وولى مدرك بن المهلب بلخ ومحمد بن المهلب مرو وعظم أمر يزيد بخراسان[1].

تمكن يزيد بن المهلب خلال فترة ولايته على خراسان لسليمان بن عبد الملك من القيام بسلسلة من الفتوحات والغزوات الناجحة، وكتب إلى سليمان بأمر هذه الفتوحات وأن الله قد فتح لأمير المؤمنين جرجان وطبرستان ومناطق قد استعصت على المسلمين من قبل[2] «وقد صار في يدي ما أفاء الله على المسلمين بعد أن صار إلى كل ذي حق حقه من الفيء والغنيمة عشرون ألف ألف. فقال له كاتبه: «لا تفعل أيها الأمير إن هذا يبقى عليك مُخلّداً بكتابك في دواوينهم، فإن ولي بعده والٍ فتحامل عليك لم يرض منك إلا بأضعافه، وإعدل عليك أخذك بما في كتابك»[3] ونصحه أن يكتب إلى سليمان بن عبد الملك بالفتح وعندما يلتقي به يخبره بشأن الأموال حتى لا تؤخذ عليه، فأبى يزيد وأمضى الكتاب وتصادف أن مات سليمان بن عبد الملك وتولى الخلافة الأموية عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١هـ) عندما وصل كتاب يزيد[4].

كتب عمر بن عبد العزيز إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على عمله ويُقبل إليه، فاستخلف يزيد مخلداً ابنه وقدم من خراسان وفي الطريق قُبض على يزيد وقُيّد وأرسل به إلى عمر بن عبد العزيز الذي حبسه بحصن

(١) راجع تفاصيل غزوات آل المهلب في هذه الفترة: البلاذري، فتوح البلدان، ص ٤١٢ وما بعدها، تاريخ اليعقوبي، ج ٢ ، ص ٢٩٦.
(٢) راجع : البلاذري ، ص ٤١٢ – ٤١٥.
(٣) الحميري ، الروض ، ص ١٦٠ – ١٦١.
(٤) النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٥٢.

حلب[1] وطالبه بالأموال التي كتب بها إلى سليمان، فأنكر يزيد هذه الأموال وبرر ذلك بقوله: «كنت من سليمان بالمكان الذي رأيت، وإنما كتبت إلى سليمان لأُسمع الناس به، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني به»[2]، وطلب يزيد من عمر بن عبد العزيز أن يطلق سراحه ليجمع له الأموال التي يطالبه بها فرفض عمر ذلك وقال: «أتأخذها من الناس مرة أخرى»[3].

والظاهر أن عمر بن عبد العزيز كان غاضباً على يزيد بن المهلب من قبل توليه الخلافة، ولم يكن راضياً عن العلاقة الوثيقة التي كانت تربطه بسليمان بن عبد الملك، والتي أعطته الفرصة ليتصرف بكثير من مظاهر الغرور وساءه بوجه خاص بعض الأعمال التي عرفت عن يزيد والتي اتسمت بالإسراف في الهبات والعطايا والتي كان يعتبرها عمر نهباً من أموال الدولة وليست مكلاً ليزيد، وقد صرح عمر بن عبد العزيز بموقفه من يزيد لأحد خُلصائه فقال: «العجب لأمير المؤمنين (سليمان)، استعمل رجلاً على أفضل ثغور المسلمين. فقد بلغني عمن يقدم من التجار من ذلك ا لوجه أنه يعطي الجارية من جواريه مثل سهم ألف رجل. أما والله، ما الله أراد بولايته – فعرفت أنه يعني يزيد – فقلت: يشكر بلاؤهم أياهم الأزارقة[4]. وكان عمر يعلن عن كراهيته لآل المهلب ويقول: «هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم»[5].

(١) الكامل، ج ٥ ، ص ٤٨ – ٤٩، النويري، ج ٢١ ، ص ٣٦٣.
(٢) الكامل ، ج ٥ ، ص ٤٨.
(٣) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣٠٢.
(٤) راجع : الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٢٨ – ٥٢٩.
(٥) الكامل ، ج ٥ ، ص ٤٩.

Scanned by CamScanner

والواقع أن يزيد قد أظهر خلال حكم سليمان بن عبد الملك كثيراً من مظاهر التكبر والاعتداد بالنفس الذي وصل إلى درجة أن يتحدى أفراداً من الأسرة الحاكمة ويواجههم بأعنف العبارات، ومن الأمثلة على ذلك ما رواه ابن قتيبة من أن سليمان بن عبد الملك سأل في مجلسه يوماً يزيد بن المهلب: فيمن العز بالبصرة؟ فقال: فينا وفي حلفائنا من ربيعة، وكان عمر ابن عبد العزيز حاضراً فاستاء من هذا[1]، كما يروى أن يزيد بن عبد الملك أبدى ملاحظة على عطر كان يتعطر به يزيد بن المهلب أغضبته، فوجه إليه ابن المهلب عبارات عنيفة جاء فيها: «إليّ يقال مثل هذا الكلام وأنا ابن المهلب ابن أبي صفرة، والله لئن ولّيت الخلافة وأنا حي لأضربن وجهك بخمسين ألف سيف[2]».

وأقبل مخلد بن يزيد من خراسان، وحاول أن يتشفع لأبيه عند عمر بن عبد العزيز ولكن الخليفة كان مُصِراً على أخذ يزيد بالمال الذي ذكره في كتابه لسليمان، وكأن الخليفة أراد الانتقام من صلف يزيد وغروره فأمعن في تعذيبه والتشهير به، فيُروى أنه ألبسه جبة من صوف وحمله على جمل وشهّر به بين الناس، فلما صاح يزيد منادياً على أهل قبيلته من الأزد، مستنجداً مما يحل به من تحقير، سارع من همس في أذن الخليفة برد يزيد إلى محبسه خوفاً من أن ينتزعه قومه غضباً له فرده عمر إلى الحبس، فلم يزل يزيد في حبسه حتى بلغه خبر مرض عمر بن عبد العزيز[3].

(١) عيون الأخبار، ص ٢٩١.
(٢) ابن أعثم، م ٤، ص ٢٣٩ – ٣٤٠.
(٣) طبري، ج ٦، ص ٥٥٧ – ٢٥٨.

كانت العلاقة بين بن المهلب وولى العهد يزيد بن عبد الملك سيئة للغاية، وقد أشرنا إلى الطريقة التي تعامل بها ابن المهلب معه من قبل، فلما بلغ يزيد بن المهلب أن عمر بن عبد العزيز على فراش الموت فكر في الهرب من محبسه خوفاً من بطش الخليفة الجديد، ويروى أن سوء العلاقة يرجع في المقام الأول، إلى أن يزيد بن المهلب عذّب أصهاره آل أبي عقيل عشيرة الحجاج في خلافة سليمان بن عبد الملك[1] فشفع يزيد بن عبد الملك في أخت لزوجته (وهى ابنة أخي الحجاج) لدى يزيد بن المهلب، فلم يقبل شفاعته، فهدده ابن عبد الملك إن أصبحت الخلافة له ليقطعن من جسده، فرد عليه ابن الملهب: لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف[2].

راسل يزيد بن المهلب أهل بيته ومواليه من محبسه معلناً عن رغبته في الفرار، فأعدوا له ذلك مثلما حدث من قبل عندما فر من سجن الحجاج، وأغدق يزيد الأموال على عامل حلب وعلى الحراس المكلفين به، وأعلمهم أن عمر بن عبد العزيز قد ثقل في مرضه وليس يرجى منه، وإن ولي يزيد وهو في حبسه سفك دمه، فساعدوه على الفرار، وانتهى به المطاف إلى البصرة، فلما بلغ مأمنه كتب إلى عمر بن عبد العزيز: إني والله لو علمت أنك تبقى ما خرجت من محبسي، ولكني لم آمن يزيد بن عبد الملك[3] فقال عمر: اللهم إن كان يزيد يريد بهذه الأمة شراً فاكفهم شره، واردد كيده في نحره»[4].

(١) أبو زكريا الأزدي، تاريخ الموصل، ص ٣ (القاهرة ١٩٦٧).
(٢) الكامل، ج ٢، ص ٥٧.
(٣) تاريخ الموصل، ص ٣.
(٤) الطبري، ج ٦، ص ٥٦٤، النويري، ج ٢١، ص ٣٦٤ – ٣٦٥.

Scanned by CamScanner

ثورة آل المهلب
علي الدولة الأموية وموقعة العقر
(١٠٢هـ/ ٧٢٠م)

Scanned by CamScanner

الفصل السادس

ثورة آل المهلب علي الدولة الأموية وموقعة العقر

(١٠٢هـ/ ٧٢٠م)

كان من أهم مشاغل يزيد بن عبد الملك بعد أن تولى الخلافة سنة ١٠١هـ/٧١٩م هو طلب يزيد بن المهلب والقبض عليه. فكتب إلى والي البصرة في ذلك الوقت عدي بن أرطأة الفزاري، يأمره بأخذ الحطية من يزيد وتحذيره لأن أول ما يفكر فيه يزيد هو أن يلجأ إلى البصرة حيث الأعوان والأنصار، كما أمر الخليفة والي البصرة أن يأخذ من بها من آل المهلب وشيعتهم فيحبسهم، فوقع في قبضته: المفضل وحبيب ومروان أبناء المهلب[١].

أقبل يزيد بن المهلب من الشام وهو لا يعلم أن أخبار هربه قد سبقته إلى البصرة ويجهل ما حدث من والي البصرة ضد أخوته وأنصاره، فالتقى به أخوه ممد بن المهلب فيمن اجتمع إليه من أهله وقومه ومواليه قبل دخوله البصرة، وكان واليها قد حشد الأجناد وخندق حولها تحسباً لمجيء يزيد ومن معه، ورغم ذلك فإن البصرة كانت بالنسبة لآل المهلب سكناً وداراً فكانت تعرف ببصرة المهلب، فلما أقبل يزيد اخترق جيوش عدي ودفاعاته دون مقاومة أو اعتراض، فيروي ابن الأثير «فأقبل يزيد لا يمر بخيل من خيلهم ولا قبيلة من قبائلهم إلا تنحوا له عن طريقه. فأقبل يزيد حتى نزل داره، فاختلف إليه الناس»[٢].

ولما اجتمع معظم أهل البصرة حول يزيد بن المهلب، كاتب عدى ابن أرطأة في الصلح، على أن يطلق أخوته وعشيرته من الحبس، وتعهد يزيد أن يتركه في البصرة حتى يحسم الصراع بينه وبين يزيد بن عبد الملك، ولكن

---

(١) طبري، ج ٦، ص ٥٧٩.

(٢) الكامل، ج ٥، ص ٧١.

Scanned by CamScanner

عـدي رفض الاسـتـجـابة للصلح[1] وكـــان ذلك في أواخـــر ســنة ١٠١هـ/٧١٩م.

استعد يزيد للدخول في مواجهة ضد والي البصرة والخلافة الأموية في دمشق فحشد الرجال والأنصار لهذا الغرض، وكان جواداً سخياً فأقبل عليه الناس، وكان يغدق عليهم بقطع الذهب والفضة في الوقت الذي شح عليهم والي البصرة لعدم مقدرته على ا لتصرف في الأموال التي تحت يده إلا بإذن من الخليفة[2] وانتهى الأمر باستيلاء يزيد على البصرة وأطلق سراح من بالحبس من أخوته وأنصاره وأتى بعدي بن أرطأة فحبسه مكانهم[3] واستولى على بيت مال البصرة مما جعل في يده أخطر سلاح يمكن أن يستخدمه ضد أعدائه، فأغدق الأموال على رجاله وبعث العمال إلى الأهواز وفارس وكرمان[4]، وجمع رجاله وشيعته وخطب فيهم وحدد أهدافه من الخروج على يزيد بأنه لا يدعي لنفسه الخلافة، ولكنه يدعوهم إلى كتاب الله وسنة رسوله[5].

وكان من سوء طالع يزيد بن المهلب وجود الحسن البصري في ذلك الوقت لما له من آراء في اعتزال الفتن، وحث أتباعه على عدم الدخول طرفاً في المنازعات بين يزيد والخليفة الأموي، فيروى أن الحسن لما سمع خطاب يزيد في رجال قال: «إن هذا الذي يدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه محمدﷺ، هو

(١) نويري ، ج ٢١ ، ص ٣٨٤.
(٢) طبري ، ج ٦ ، ص ٥٨١.
(٣) تاريخ الموصل ، ص ٨.
(٤) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٩٣.
(٥) راجع: ابن أعثم ، م ٤ ، ص ٢٤٥ – ٢٤٦.

الذي كان يقتل الناس بالأمس في هوى بني أمية»[1] وسوف تكون هذه الدعوة من عوامل هزيمة يزيد فيما بعد.

استخلف يزيد بن المهلب أخاه مروان على البصرة[2] وتحرك بحشوده في اتجاه واسط «وحشدت له الأزد وأحلافها، وانحدر إليه أهله وخاصته»[3]، وانضمت إليه أعداد كبيرة من أهل الكوفة ومن الثغور، وأحصى ديوان ابن المهلب مائة وعشرين ألف مقاتل، ورغم ذلك فقد كان يتمنى أن يكون في صفوفه من بخراسان من قومه الأزد[4]، وكان يزيد قد بعث أخاه مدرك بن المهلب إلى خراسان وعليها عبد الرحمن بن نعيم ليحشد له الحشود، ولكن ابن نعيم لم يستجب له، وحرض بني تميم على التعرض لمدرك ومنعه من الوصول إلى خراسان خوفاً على نفسه من غضب الخلافة الأموية في دمشق[5]، ولكن قبائل الأزد سارعت بإخراج ألفين من فرسانها لاستقبال مدرك، ومنعوا بني تميم من التعرض له بسوء، ويروي ابن الأثير، أن الأزد في خراسان كانت لها وجهة نظر واضحة في هذا الصراع الدائر ضد الخلافة الأموية، عبر عنه أحدهم لمدرك بن الملهب الذى قال له: «إنك أحب الناس إلينا وقد خرج أخوك، فإن يظهر فإنما ذلك لنا ونحن أسرع الناس إليكم وإن تكن الأخرى فو الله ما لك في أن يغشانا ما يعرنا فيه من البلاء، فانصرف عنهم»[6].

(١) الكامل، ج ٥ ، ص ٧٦.
(٢) تاريخ الموصل ، ص ٩.
(٣) المسعودي ، مروج ، ج ٣ ، ص ١٩٩ ، الروض المعطار ، ص ٤١٨.
(٤) الكامل ، ج ٥ ، ص ٧٩.
(٥) تاريخ الموصل ، ص ٨.
(٦) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٨٦.

Scanned by CamScanner

حشد الخليفة يزيد بن عبد الملك في مواجهة يزيد بن المهلب جيشاً كثيفاً تقدره المصادر ما بين سبعين إلى ثمانين ألف رجل، ووضع على قيادته أحد أبطال الفتوحات أخاه مسلمة بن عبد الملك ومعه ابن أخيه العباس ابن الوليد بن عبد الملك[1] وتحرك هذا الجيش إلى العراق وقدم الكوفة في أوائل سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م، ويبدو أن الجو كان بارداً والطقس غير مناسب للقتال حتى إن مسلمة قال: «ليت هذا المزوني، يعني ابن المهلب، لا كلفنا أتباعه في هذا البرد»[2].

والظاهر أن خبر وصول جيش الخلافة إلى الكوفة قد أثار الذعر والاضطراب بين صفوف رجال يزيد بن المهلب الذي ساءه ذلك، ويشعر بأن الخوف بداية الهزيمة، فاجتمع برجاله ووقف فيهم خطيباً فقال: « ما هذا الاضطراب إن قيل جاء مسلمة والعباس، فوالله ما مسلمة إلا جرادة صفراء .. وما أهل الشام إلا طعام قد حشدو ما بين فلاح وزراع ودباغ وسفلة، فأعيروني أكفكم ساعة تصفعون بها خراطيمهم. فما هي إلا روحة أو غدوة حتى يحكم الله بيننا وبين القوم الظالمين»[3].

ترك يزيد بن المهلب واسط واستخلف عليها ابنه معاوية، وسار حتى نزل في مكان بالقرب من الكوفة يسمى العقر[4]، وكان قد بعث أخاه عبد الملك في محاولة لضرب الكوفة والاستيلاء عليها، فاصطدم عبد الملك بجيش يقوده العباس بن الوليد وانتهى الأمر بينهما بهزيمة عبد الملك الذي انسحب

(١) المسعودي ، التنبيه ، ص ٢٩٤.
(٢) المزون : عمان وهو اسم من أسمائها (المبرد، ص ٢٤٠)، الكامل، ج ٥ ، ص ٧٤.
(٣) المسعودي ، مروج ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ ، الحميري ، الروض، ص ٤١٩.
(٤) العقر بأرض بابل من ناحية الكوفة بالعراق، بين واسط وبغداد (الروض، ص ٤١٨).

بمن معه والتقى بأخيه عند العقر[1]. وأقبل مسلمة بن عبد الملك ونزل بمواجهة ابن المهلب في صفر سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م ولم يبدأ القتال بين الجانبين إلا بعد ثمانية أيام[2] حدثت خلالها تطورات خطيرة في صفوف جيش يزيد بن المهلب.

أرسل مسلمة بن عبد الملك الرسل إلى يزيد بن المهلب يسأله أن يحقن الدماء ويرجع عما هو عليه، وتعهد له في مقابل ذلك أن يوليه ويولي أخوته ما يرغبون من البلاد، وأعلن استجابته لدعوة يزيد إلى الكتاب والسنة[3] التى أعلنها لأصحابه. ويبدو أن مسلمة كان يعلم حقيقة الأوضاع في جيش يزيد واختلاف الآراء والنحل بين رجاله، فقد أوجدت دعوته إلى قبول الكتاب والسنة انقساماً خطيراً في صفوف يزيد يذكرنا بهذا الانقسام الذي حدث من قبل في موقعة صفين بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان.

وكيفما كان الأمر فإن يزيد بن المهلب عندما بدأ إعداد جيشه للمواجهة وأعد خطة الهجوم على جيش الخلافة الأموية، وجد معارضة من بعض رجاله وعلى رأسهم السميدع الكندي من بني مالك بن ربيعة[4] وأيده في ذلك أبو رؤبة صاحب المرجئة وأتباعه. وكان رأيهم أن ينتظروا ولا يبدأوا بقتال حتى يرد القوم برأيهم الذي زعموا أنهم قبلوه منهم[5] . ولكن مسلمة ابن عبد الملك كان قد هيأ جيشه للقتال، فاضطر يزيد إلى الخروج لمواجهته رغم المعارضة التي حرمته من تنفيذ خططه في المبادرة بالهجوم، فجعل على

(١) المسعودي ، التنبيه، ص ٩٤ ، تاريخ الموصل، ص ١٤.
(٢) النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٨٧.
(٣) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ٢٥١.
(٤) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٨٣.
(٥) الكامل، ج ٥ ، ص ٨٠.

Scanned by CamScanner

ميمنته حبيب بن المهلب، وعلى ميسرته المفضل بن المهلب[1] ودارت عند العقر معركة عنيفة بين الجانبين أجمعت المصادر على أن أصحاب يزيد قد خذلوه خلالها فانهزموا عنه وولى أكثرهم الأدبار[2] فيروي ابن الأثير أن مسلمة أمر أحد رجاله بحرق الجسر الذي عقده على نهر الفرات، فلما رأى أصحاب المهلب الدخان انهزموا، فلما رأى يزيد ذلك تعجب من سبب انهزامهم وفرارهم[3] ولاشك أن الدخان ليس هو السبب في فرار أصحاب يزيد، وسوف نعرض لأسباب هزيمة العقر فيما بعد.

وهكذا انتهت المعركة بهزيمة يزيد، ولما وصله خبر قتل أخيه حبيب بن المهلب أثناء القتال شعر بهوان الحياة، فاخترق صفوف جيش مسلمة في فدائية وبسالة وكأنه يبغي الموت بشرف في ساحة القتال التي طالما صال وجال فيها سنوات طويلة، وقتل كل من كان يعرض طريقه حتى تكاثر عليه أهل الشام فقتلوه وقتل معه محمد بن المهلب[4]، ويروي اليعقوبي أن يزيد بن المهلب خاض هذه المعركة وهو يعاني مرضا شديداً فكان «مبطونا شديد العلة»[5]. ولما قتل يزيد بن المهلب، كان أخوه المفضل ما يزال يقاتل جيش مسلمة، فلما وصله خبر قتل أخوته: يزيد وحبيب ومحمد «تفرق الناس عنه»[6]، فانسحب

(١) الروض ، ص ٤١٩.
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩٥، النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٨٦.
(٣) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٢.
(٤) تاريخ الموصل ، ص ١٢ – بعد قتل يزيد قال الفرزدق في رثائة:

ولا حملت أنثى ولا وضعت * بعد الأغر أصيب بالعقر
ذهب الجمال من المجالس كلها وخلا لفقدك مجلس النصر

(٥) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣١١.
(٦) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٤ ، النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٨٨.

المفضل إلى واسط وكان عليها معاوية بن يزيد بن المهلب وكان تحت يده عدد من الأسرى الأمويين فلما بلغه هزيمة يزيد وقتله وما أصاب أعمامه ضرب أعناق الأسرى انتقاماً لقتلاه[1].

تجمع من بقي على قيد الحياة من آل المهلب بالبصرة بما زال في حوزتهم من أموال ومتاع وأعدوا السفن في طريقهم إلى قندابيل[2] وكان على إمارتها وداع بن حميد الأزدي الذي ادخره يزيد بن المهلب لمثل هذا اليوم، فكان قد أوصاه عندما ولاه قندابيل بأن تكون حصن أمان لآل المهلب إذا حل به مكروه[3].

عوامل هزيمة يزيد بن المهلب في العقر

(صفر سنة ١٠٣هـ / ٧٠٣م)

تضافرت عدة عوامل في نكبة يزيد وآل المهلب في يوم العقر، وما تبع ذلك اليوم من مذبحة لاحق خلالها الأمويون آل المهلب في كل مكان وكأنهم كانوا يرمون إلى القضاء عليهم ومحو ذكرهم من الوجود، وأهم هذه العوامل في رأينا:

١- الانقسام داخل صفوف جيش يزيد وبين قواده، وقد أثار هذا الانقسام وعمقه، ما قام به الحسن البصري – وهو فقيه له مكانته وأنصاره في البصرة – من تشكيك الناس في جدوى القتال وراء يزيد، وواجه الحسن يزيداً أثناء خطابه في أصحابه في مسجد البصرة، وحرض الناس على عدم الوثوق في ادعاءات يزيد، وعدم المشاركة في الفتنة، وكان يصيح فيهم:

(١) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٣١١ ، تاريخ الموصل، ص ١٢ .
(٢) قندابيل مدينة بالسند وهي قصبة ولاية الندهه، (راجع معجم البلدان لياقوت) .
(٣) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٥.

Scanned by CamScanner

«أيها الناس، الزموا منازلكم وكفوا أيديكم، واتقوا الله ربكم، لا يقتل بعضكم بعضاً على دنيا زائلة»[1].

ولا شك أن هذه الدعوة كانت لها تأثير خطير على جيش يزيد بن المهلب، مما جل البعض يميل إلى رأي الحسن البصري، وعندما حاول والي البصرة مروان بن المهلب أن يحشد الناس ليزيد بعد تحركه في اتجاه العقر، كان الحسن البصري له بالمرصاد ولم يستطع مروان أن يتصدى له لأن أنصاره كانوا على استعداد للوقوف في وجه مروان إذا تعرض له بمكروه[2].

ومن وجهة أخرى فإن عناصر من المرجئة – وهم يمثلون إحدى الفرق الإسلامية التي ترفض الاشتراك في الفتن، ولا تؤيد فريقاً دون آخر – كانوا بين صفوف جيش يزيد بن المهلب ولعل ما دفعهم إلى انخراطهم في جيشه ما أغدقه يزيد على جنده من العطايا والهبات، وفي الوقت الذي كان يحتاج فيه يزيد إلى حشد قواه لمواجهة أعدائه، خرج أحد رجاله وهو السميدع واعترضه قائلاً: «إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وقد زعموا أنهم قبلوا هذا منا، فليس لنا أن نمكر ولا نغدر، ولا نريدهم بسوء حتى يردوا علينا ما زعموا أنهم قابلوه منا. قال أبو رؤبة – وكان رأس طائفة من المرجئة ومعه أصحاب له – هكذا ينبغي»[3].

٢– الثقة الزائدة في النفس التي تلقي الحذر، وتصل إلى الغرور من جانب يزيد ابن المهلب، فقد كان أبوه من قبل يتحرز من أعدائه ولا يستهين بهم في كل الأحوال، وقد تربى يزيد في هذا الجو وخاض في حياة أبيه العديد من

(١) ابن أعثم ، م ٤ ، ص ٢٤٩ – قارن : الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٨٧ – ٥٨٨.
(٢) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩٤.
(٣) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩٣، الكامل ، ج ٥، ص ٨٠.

المعارك ومر بالكثير من التجارب، وكان المفروض أن يعي الدرس، ولكنا نلاحظ في هذه المعركة أن يزيد كان ينظر إلى أعدائه بدون اكتراث، وكأن الانتصار عليهم مسألة وقت، مع العلم بأن الخليفة الأموي قد وجه لقتاله قائدين من أقرب الناس إليه، أحدهما وهو مسلمة بن عبد الملك الذي كان أحد أبطال الغزو والجهاد في الجبهة البيزنطية، وبالرغم من ذلك فقد سخر يزيد من هذه القيادة، ولام رجاله لتخوفهم من أهل الشام، وقد يغفر له ما قاله تشجيعاً لجنوده، ولكنه قلل من شأن أعدائه ولم يحسن تقدير قوتهم، فمن بين ما قاله لأصحابه: إنه قد ذكر لي أن هذه الجرادة الصفراء – يعني مسلمة بن عبد الملك، وعاقر ناقة ثمود – يعني العباس بن الوليد – أنه ليس همهما إلا التماسي في الأرض، والله لو جاء أهل الأرض جميعا وليس إلا أنا، ما برحت العرصة حتى تكون لي أو لهم»[1] وتساءل في تعجب: «قد رأيت أهل العسكر وخوفهم يقولون جاء أهل الشام ومسلمة، وما أهل الشام؟ هل هم إلا تسعة أسياف سبعة منها إلي وسيفان علي»[2].

ونتيجة لهذا الاعتداد الشديد بالذات لم يستجب لمشورة قواده وأهل بيته، وكان قد استشارهم عندما توجه إلى واسط عن رأيهم في الخطوة التالية فاقترح عليه حبيب بن المهلب وبعض قواده أن يخرج بأحصابه إلى فارس فيتحصن بشعابها وجبالها ويستولى على القلاع والحصون فينضم إليه من بها من قومه ومواليه، فرفض يزيد هذه الفكرة[3] فذكره حبيب بأنه قد سبق ونصحه عندما استولى على البصرة أن يسارع فيرسل خيلاً للاستيلاء على

(١) الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩٢.
(٢) الكامل ، ج ٥ ، ص ٧٥.
(٣) تاريخ الموصل ، ص ١١.

Scanned by CamScanner

الكوفة – وكان واليها قد عجز عن التصدي ليزيد عندما مر عليه حين قدومه من الشام، وليس معه إلا سبعون رجلاً – فيسبق إليها أهل الشام، وكان أهل الكوفة على استعداد لتأييد يزيد ويفضلون أن يلي أمرهم على أن يخضعوا لأهل الشام، فلم يستمع يزيد لنصيحة حبيب(١).

كما أنه حين أوشكت الهزيمة أن تحل بيزيد في العقر، نصحه بعض رجاله أن ينصرف إلى واسط ويتحصن بها وقال: «فيأتيك مدد أهل البصرة، ويأتيك أهل عمان والبحرين في السفن، وتضرب خندقا..» فقال له: قبح الله رأيك .. الموت أيسر علي من ذلك(٢).

٣- وأخيراً .. تفرق الناس عن يزيد بن المهلب في الوقت الذي كان في أمس الحاجة إلى تماسكهم واتحادهم، والواقع أنهم لم يفرقهم الدخان الذي انطلق من الجسر المحروق، ولكن معظم الذين كانوا يحاربون في صفوف يزيد في تلك المعركة ان يجمعهم المال، وتفرقهم الرهبة والخوف، لا سيما وأنهم يواجهون جيش الخلافة الأموية، وعلى رأسه مسلمة بن عبد الملك، وكان هذا يعني بالنسبة لهم خروجاً على السلطة الشرعية بعكس حروبهم التي سبق أن خاضوها تحت قيادة آل المهلب سواء ضد الأزارقة وهم أعداء الدولة وخارجون عليها، أو ضد الأقاليم التي أعادوا إخضاعها أو فتحوها، فهي أعمال في صالح الدولة الأموية وتحت رايتها. لذلك كان من السهل على البعض أن يجد مبرراً للانسحاب والهرب عند الشعور بالخطر. وكان هذا موقف بعض العناصر القريبة من آل

(١) الكامل، ج ٥، ص ٧٧.
(٢) تاريخ الموصل، ص ١١.

المهلب، وخير مثال على هذا موقف أزد خراسان(١) الذي سبق أن أشرنا إليه.

وكيفما كان الأمر، فإن المفضل بن المهلب تولى زعامة الأسرة في هذا الوقت الحرج بعد هزيمة أسرته في موقعة العقر، فيروي الطبري: أن معاوية بن يزيد بن المهلب حين قدم البصرة من واسط، حمل معه الخزائن وبيت المال، فأراد أن يتآمر على المهلب، فاجتمعوا وقالوا للمفضل أنت أكبرنا وسيدنا وولوه قيادتهم(٢)، فركب المفضل بآل المهلب في السفن من البصرة، ورست السفن في البحرين للراحة والتزود بالمؤن فالتقى بهم واليها من قبل يزيد بن المهلب ويدعى «هرم بن القرار العبدي» فنصحهم بألا يتركوا سفنهم وقال: «إني أتخوف عليكم إن خرجتم من هذه السفن أن يتخطفكم الناس وأن يتقربوا بكم إلى بني مروان»(٣).

ورغم ما في قول هرم من بعض الحقيقة، فما كان أحد من الأعوان والأنصار يستطيع أن يحمي آل المهلب في ذلك الوقت من بطش الدولة الأموية بسطوتها وجيوشها، ولعله في نفس الوقت كان يرغب في إبعادهم عن التفكير في الاحتماء بالبحرين مما قد يجره عليه ذلك من ويلات.

ويروي العوتبي الصحاري أن السفن التي تحمل آل المهلب توجهت من البحرين إلى عمان وكان على ولايتها في ذلك الوقت زياد بن المهلب الذي رحب بأسرته في وطنهم ا لأصلي وشجعهم على البقاء في عمان بين

(١) الكامل، ج ٥، ص ٧٥.
(٢) الطبري، ج ٦، ص ٦٠١.
(٣) الطبري، ج ٦، ص ٦٠٠.

Scanned by CamScanner

أهلهم، ولكنهم أبوا ذلك[1]، والواقع أنه ليس هناك، في رأينا، ما يبرر عدم لجوء آل المهلب في هذه المرحلة الحرجة إلى وطنهم عُمان حيث الأمان والاستقرار بالنسبة لهم، إلا احتمال أنهم كانوا يأملون في التحصن بقندابيل، وأن ينضم إليهم أهلهم ومواليهم في فارس مما قد يعطيهم الفرصة في الحماية من بطش الدولة الأموية ومواصلة الكفاح ضدها للثأر مما أصابهم.

وكيفما كان الأمر فإن آل المهلب مضوا في سفنهم حتى إذا كانوا بحذاء جبال كرمان خرجوا إلى الساحل وحملوا ما معهم على الدواب، وفى كرمان اجتمع إلى المفضل فلول من أنصاره، وكانت عيون مسلمة بن عبد الملك تراقب تحركات آل المهلب للقضاء عليهم قبل أن يتمكنوا من حشد حشودهم واصطناع الأعوان، فبعث مسلمة في أرثهم «مدرك بن ضب الكلبي» الذي لحق بهم، والتقى الجانبان في معركة عنيفة قتل فيها عددٍ كثير من أصحاب المفضل، كما رجع بعضهم وطلبوا الأمان من مسلمة فأمنهم[2]، وتمكن المفضل من الخروج من المعركة بمن معه من آل المهلب ومن بقي على ولائه لهم قاصداً قندابيل على رجاء الاحتماء بها حسب الاتفاق الذي كان بين يزيد بن المهلب وبين واليها وداع بن حميد، وفي قندابيل كان ينتظر آل المهلب مفاجأة أخرى، فالظاهر أن وداع قد أعاد تقدير الموقف، وأدرك أن دخول آل المهلب قندابيل فيه نهايته، لا سيما أن الخليفة يزيد بن عبد الملك قد بعث جيشاً آخر بقيادة هلال بن أحوز التميمى فى طلب آل مهلب وأمره ألا يلقى منهم من بلغ الحلم إلا ضرب عنقه[3].

(١) الأنساب ، ج ٢ ، ص ١٥٦.
(٢) راجع التفاصيل ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٦٠١ – ٦٠٢.
(٣) المسعودي ، مروج ، ج ٣ ، ص ٢٠٠.

لحق هلال بن أحوز آل المهلب قبل دخولهم قندابيل، ورفع راية **الأمان** للناس فكان أول من استجاب للأمان وداع صاحب قندابيل، وتفرق الناس عن آل المهلب الذين تقدموا بسيوفهم فقاتلوا بفدائية واستبسال حتى قتل معظمهم وهم: المفضل وعبد الملك وزياد ومروان بنو المهلب، ومعاوية ابن يزيد بن المهلب، والمنهال بن أبي عيينة بن المهلب وعمرو والمغيرة ابنا قبيصة ابن المهلب، ولم يفلت منهم إلا أبو عيينة بن المهلب وعثمان بن المفضل الذين فرا إلى بلاد الترك[1].

وبعث هلال بن أحوز برؤوس القتلى والنساء الأسرى من آل المهلب إلى مسلمة بن عبد الملك وهو بالحيرة، فلما أراد مسلمة بيع الأسرى عرض الجراح بن عبد الله الحكمي مائة ألف درهم ثمناً لهم، فلم يأخذ منه مسلمة شيئاً وأطلق سراحهم[2] أما الأسرى الرجال فأمر يزيد بن عبد الملك بضرب أعناق من بلغ الحلم منهم، والغريب في الأمر أن غلاماً من آل المهلب لم يقتل لصغر سنه، ولكنه صاح بهم أن يقتلوه. وقال: «أنا أعلم بنفسي فقد احلمت ووطئت النساء فأمر به فقتل»[3]، وقام يزيد بن عبد الملك بمصادرة أملاك آل المهلب في كل مكان وأقطعها لأنصاره[4].

ظل آل المهلب على عدائهم للدولة الأموية بعد النكبات التي حلت بهم، ولكن لم يكن لهم دور مؤثر في الأحداث لسنوات طويلة بعد نكبتهم على يد يزيد بن عبد الملك، لأن المصادر التي بين أيدينا لم تعطنا المعلومات اللازمة عن آل المهلب في الفترة التالية لنكبتهم إلا أن ما ذكر بعد ذلك في الأحداث

(١) البلاذري ، ص ٥٤٠، النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٩٠.
(٢) الكامل ، ج ٥ ، ص ٨٦.
(٣) النويري ، ج ٢١ ، ص ٣٩١.
(٤) راجع: البلاذري ، ص ٤٥١ – ٤٥٤.

Scanned by CamScanner

سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م يدل على أن آل المهلب قد بدأوا يستعيدون نفوذهم ويجمعون حولهم الأنصار وخاصة في مدينتهم البصرة وإقليم الأهواز الذي عاصر انتصاراتهم على الأزارقة. ففي أثناء الصراع بين أبي مسلم الخراساني والقائد الأموي نصر بن سيار على خراسان سنة ١٢٩هـ ظهر على مسرح الأحداث أحد أفراد آل المهلب وهو سليمان بن حبيب بن المهلب، فيروي اليعقوبي:

«وثب سليمان بن حبيب بن المهلب بالأهواز سنة ١٢٩هـ/٦٤٦م، فوجه إليه القائد الأموي يزيد بن عمر بن هبيرة، نباتة بن حنظلة الكلابي، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ثم انخزم سليمان فلحق بفارس»[١] مما يوحي بأنه انضم إلى جيوش أبي مسلم الخراساني الذي كان يحارب الدولة الأموية في ذلك الوقت.

والظاهر أن زعماء آل المهلب ظلوا يساندون الدعوة العباسية حتى حققت أهدافها بالقضاء على الدولة الأموية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، فعندما أعلن أبو سلمة الخلال صاحب الدعوة العباسية في الكوفة الدعوة للعباسيين، قام سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بإعلان الثورة في البصرة ولبس السواد شعار الدولة العباسية وحارب والي الأمويين واستولى على المدينة[٢] وقد كافأ العباسيون سفيان بن معاوية بأن أسندوا إليه ولاية البصرة، وردوا إليه أملاك آل المهلب التي صادرتها لدولة الأموية[٣].

---

(١) تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤١.
(٢) اليعقوبي، ج ٢، ص ٣٤٥، الأنساب، ج ٢، ص ١٥٦ – ١٥٧.
(٣) الطبري، ج ٧، ص ٤٥٨، البلاذري، ص ٤٥١.

Scanned by CamScanner

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية القديمة:

- ابن الأثير: على بن محمد بن عبد الكريم (ت ٦٣٠ هـ):

١- أسد الغابة فى معرفة الصحابة، القاهرة، ١٩٧٠م.

٢- الكامل فى التاريخ، بيروت ١٩٨٢م.

- الأصطخرى: أبو اسحاق ابراهيم بن محمد (ت ٣٤١ هـ).

١- كتاب ا لأقاليم، (تصوير بغداد بلدون تاريخ).

٢- كتاب مسالك الممالك، ليدن ١٩١٧م.

- ابن أعثم الكوفى: أبو محمد أحمد (ت ٣١٤ هـ).

- كتاب ا لفتوح، بيروت سنة ١٩٨٦م.

- البفراوى: صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق (ت ٧٣٩هـ):

- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق على محمد البجاوى، بيروت ١٩٥٤م.

- البلاذرى: أحمد بن يحيي بن جابر (ت ٢٧٩ هـ):

- فتوح البلدان، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦م.

- الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ):

- البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٨٥م.

- ابن حجر: شهب الين أحمد بن على العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ):

- الإصابة فى تمييز الصحابة، القاهرة، ١٣٢٨ هـ.

Scanned by CamScanner

- ابن حزم: أبو محمد على بن أحمد الأندلسى (ت ٤٥٦ هـ):

١- جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٩٧١م.

٢- الفصل فى الملل والأهواء والنحل، تحقيق عبد الرحمن عميرة وآخرون، جدة، ١٩٨٢م.

- الحلبى: على برهان الدين:

- السيرة الحلبية، مجلد ٣ (طبع بيروت بدون تاريخ).

- الحميرى: عبد المنعم السبتى (ت أواخر القرن التاسع الهجرى):

- الروض المعطار فى خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس - بيروت ١٩٨٤.

- ابن خلدون: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ):

- مقدمة ابن خلدون، تحقيق على عبد الواحد وافى، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٧٩م.

- ابن خلكان: شمس الدين أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ):

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس ٨ أجزاء (بيروت ١٩٦٨ - ١٩٧٢م).

- خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ):

١- تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمرى بغداد ١٩٦٧م.

٢- كتاب الطبقات، تحقيق أكرم ضياء العمرى، بغداد ١٩٦٧م.

- الذهبى: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (٧٤٨ هـ):

-١ سير أعلام النبلاء، بيروت بدون تاريخ.

٢- كتاب المشتبه، القاهرة سنة ١٩٦٢م.

- الرازى: فخر الين محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ):

- اعتقاد فرق المسلمين والمشركين، القاهرة ١٩٧٨م.

- أبو زكريا: يزيد بن محمد بن إياس (ت ٣٣٤ هـ):

- تاريخ الموصل، القاهرة ١٩٦٧م.

- ابن سعد: أبو عبد الله محمد الزهرى (ت ٢٣٠ هـ):

- الطبقات الكبرى، ٨ أجزاء (طبعة دار الشعب بالقاهرة).

- ابن سعيد المغربى: أبو الحسن على بن موسى (ت ٦٨٠ هـ):

- كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربى، بيروت ١٩٧٠.

- سيف البطاش: سيف بن حمود بن حامد:

- تاريخ المهلب القائد وآل المهلب، عمان سنة ١٩٨٨م.

- الشهرستانى: محمد بن عبد الكريم بن أحمد (ت ٥٤٨ هـ):

- الملل والنحل، القاهرة ١٩٧٧م.

- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ):

- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (طبعة دار المعارف بالقاهرة).

- ابن عبد البر: النمرى القرطبى (ت ٤٦٣ هـ):

- الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، القاهرة ١٣٢٨هـ.

Scanned by CamScanner

- أبو عبيد القاسم بن سلام:
- كتاب الأموال (بيروت بدون تاريخ).
- ابن عذارى: أبو عبد الله محمد المراكشى (ت أواخر القرن السابع الهجرى):
- البيان المغرب فى أخبار المغرب، نشر كولان وبروفنسال، ليدن، ١٩٤٨م.
- العوتبى: سلمة بن مسلم الصحارى (ت القرن الخامس الهجرى):
- كتاب الأنساب، ٢ جزء، تحقيق محمد الصليبى، سلطنة عمان ١٩٨٤م.
- أبو الفرج الأصفهانى: على بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ):
- كتاب الأغانى (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة).
- ابن قتيبة الدينورى: عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ):
١- عيون الأخبار، القاهرة، ١٩٧٣م.
٢- المعارف: تحقيق ثروت عكاشة، القاهرة ١٩٦٩م.
- قدامة بن جعفر (ت ٣٢٩ هـ):
- الخراج وصنعة الكتابة (طبع العراق ١٩٨١م).
- القلقشندى: أحمد بن على بن أحمد (ت ٨٢١ هـ):
- صبح الأعشى فى صناعة الانشاء، ١٤ جزء (طبع الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة).
- كتاب السير والجوابات لعلماء وأئمة عمان (جزء ١) تحقيق سيدة اسماعيل كاشف، القاهرة ١٩٨٦م.

- ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا اسماعيل (ت ٧٧٤ هـ):
- البداية والنهاية، القاهرة ١٩٣٣م.
- الكندى: أبو عمرو محمد بن يوسف (ت ٣٥٠ هـ):
- كتاب الولاة والقضاة، تحقيق رفن جست، بيروت ١٩٠٨م.
- المبرد: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر (ت ٢٨٥ هـ):
- الكامل فى اللغة والأدب، بيروت، بدون تاريخ).
- أبو المحاسن: جمال الدين يوسف (ت ٨٧٤ هـ):
- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (طبع دار الكتب سنة ١٩٦٣م).
- محمد بن أبى عثمان الجازمى:
- كتاب النسب، القاهرة سنة ١٩٧٣م.
- المسعودى: على بن الحسين بن على (ت ٣٤٦ هـ):
١- التنبيه والإشراف (بيروت ١٩٨١م).
٢- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨م.
- أبو منصور الجواليقى: موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر:
- المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم، تحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٩٦٩م.
- نور الدين السالمى: أبو عبد الله محمد بن حميد بن سلوم:
- ترجمة الأعيان بسيرة أهل عمان، القاهرة بدون تاريخ.

Scanned by CamScanner

– النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٢ هـ):
– نهاية الأرب فى فنون الأدب (طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب).

– ابن هشام: أبو محمد عبد الملك المعافرى (ت ٢١٣ هـ):
– السيرة النبوية، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، القاهرة ١٩٧٨م.

– أبو هلال العسكرى: (توفى فى بداية القرن الخامس الهجرى):
– كتاب الأوائل، الرياض سنة ١٩٨١م.

– الهمدانى: أبو بكر محمد بن أبى عثمان الحازمى (ت ٥٨٤ هـ):
– عجالة المبتدى وفضالة المنتهى فى النسب، تحقيق عبد الله كنون، القاهرة ١٩٧٣م.

– الواقدى: محمد بن عمر بن واقد (٢٠٧ هـ):
– كتاب المغازى، تحقيق مارسدن جونس، اكسفورد ١٩٦٥م.

– ياقوت الحموى: شهاب الدين بن عبد ا لله (ت ٦٢٦ هـ):
– معجم البلدان، بيروت ١٩٥٥م.

– اليعقوبى: أحمد بن جعفر بن وهب (ت ٢٨٤ هـ):
– تاريخ اليعقوبي (طبع بيروت بدون تاريخ).

ثانياً: المراجع الحديثة:

- أطهر مباركبورى الهندى:
– العرب والهند فى عهد الرسالة، ترجمة عبد العزيز عزت، القاهرة ١٩٧٣م.

- ج . س ولكنسن:
– بنو الجلندى فى عمان (نشر وزارة التراث القومى، سلطنة عمان، ١٩٨٢م).

- ابن رزيق: حميد بن محمد:
– الشعاع الشائع باللمعان فى ذكر أئمة عمان (نشر وزارة التراث القومى – سلطنة عمان، ١٩٧٨م).

- سالم بن حمد بن شامس السيابى:
– عمان عبر التاريخ (نشر وزارة التراث القومى – سلطنة عمان، ١٩٨٢م).

- السالمى: نور الدين عبد الله بن حميد (ت ١٣٣٢ هـ):
– تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان (طبع القلعة بمصر بدون تاريخ).

- سرحان بن سعيد الازكوى:
– كتاب تاريخ عمان: المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة، تحقيق عبد المجيد القيسى، القاهرة، ١٩٨٠م.

Scanned by CamScanner

- سيدة اسماعيل كاشف:

- عمان فى فجر الإسلام (نشر وزارة التراث القومى - سلطنة عمان، ١٩٨٩م).

- سيف بن حمود بن حامد البطاش:

- إرشاد السائل إلى معرفة الأوائل، سلطنة عمان ١٩٨٨م.

- Simon Ockley: History of the Saracent, London, 1847.

- على حسنى الخربوطلى:

- تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى، القاهرة ١٩٥٩م.

- عوض خليفات:

- نشأة الحركة الأباضية، عمان ١٩٧٨م.

- محمد رشيد العقيلى:

- الأباضية فى عمان وعلاقاتها مع الدولة العباسية فى عصرها الأول (نشر وزارة التراث القومى - سلطنة عمان، ١٩٨٤م).

- محمد شكرى الالوسى:

- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، جزء ٣ (القاهرة بدون تاريخ).

- William Moir: The Caliphate decline decline and Fall, London, 1924.

Scanned by CamScanner

فهرس الموضوعات

الموضوعات	الصفحات
المقدمة	١-٩
الباب الأول	
تاريخ عُمان فى صدر الإسلام	١١-١١٩
تمهيد	١٣
الفصل الأول: عُمان فى عصر النبوة	١٧-٣٩
الفصل الثاني: عُمان والخلافة الراشدة	٤١-٦٧
- احداث الردة فى دبا	٤٥
- عُمان وحركة الفتوحات الإسلامية	٧٥
الفصل الثالث: عُمان والدولة الأموية	٦٩-٩٢
- عُمان والخوارج النجدات	٧٣
الفصل الرابع: عُمان بين عهدين: سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية	٩٣-١١٩
- إمامة الجلندى بن مسعود فى عُمان	١٠٣
الباب الثاني	
آل المهلب فى الخليج والمشرق الإسلامى حتى قيام الدولة العباسية	١٢١-٢٣٠
الفصل الأول: أسرة المهالبة منذ إسلام أبى صفرة وحتى وفاة يزيد بن معاوية	١٢٣-١٣٦
- إسلام أبى صفرة وبداية ظهور المهلب	١٢٥
- المهلب يتزعم أسرة أبى صفرة	١٣١

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني: آل المهلب وثورة عبد الله بن الزبير ---------- ١٣٨-١٥٧
الفصل الثالث: دور آل المهلب فى القضاء على الأزارقة ---------- ١٥٩-١٨٣
- بين آل المهلب والحجاج ---------- ١٦٨
الفصل الرابع: ولاية المهلب على خرسان حتى وفاته ---------- ١٨٥-١٩٣
الفصل الخامس: أسرة المهالبة بقيادة يزيد وحتى وفاة الخليفة
عمر بن عبد العزيز ---------- ١٩٥-٢١٣
- عزل يزيد بن المهلب عن خرسان ---------- ٢٠٠
- اتفاع شأن آل المهلب فى عهد الخليفة سليمان
بين عبد الملك ---------- ٢٠٦
الفصل السادس: ثورة آل المهلب على الدولة الأموية وموقعة
العقر ---------- ٢١٥-٢٣٠
- عوامل هزيمة يزيد بن الهلب فى العقر ---------- ٢٢٣
فهارس الكتاب ---------- ٢٣١-٢٥٠
أولا: الأعلام ---------- ٢٣٣
ثانيا: القبائل والجماعات ---------- ٢٤٤
ثالثا: الأماكن والمواضع والبلدان ---------- ٢٤٧
قائمة المصادر والمراجع ---------- ٢٥١

Scanned by CamScanner

تأليف الدكتور
عبد المنعم عبد الحميد سلطان
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
كلية الآداب بسوهاج
وكلية الآداب جامعة السلطان قابوس سابقاً

كتب للمؤلف من نشر المكتب الجامعي الحديث

١ - العرب والفرس قراءة جديدة لدور القوميتين في سقوط الدولة الأموية وإحداث العصر العباسي الأول
٢ - دراسات في التاريخ والحضارة الإسلامية
٣ - آل المهلب العمانيون في العصر الإسلامي
٤ - تاريخ عمان وعصر النبوة
٥ - الحركة التجارية ونظام الأسواق
٦ - تاريخ عمان والطيب في العصر الإسلامي

كتب للمؤلف تحت الطبع

قريبا

* تاريخ عمان وعصر الخلفاء الراشدين
* تاريخ عمان وعصر الدولة الأموية
* تاريخ عمان وعصر الدولة العباسية

المكتب الجامعى الحديث
مساكن سوتير- أمام سيراميكا كليوباترا
عمارة (5) مدخل 2 الأزاريطة - الإسكندرية
تليفاكس : 00203/4865277 - تليفون : 00203/4818707
E-Mail : modernoffice25@yahoo.com

Scanned by CamScanner